جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالزقازيق

مسلك الإمام عبد القاهر الجرجانى في تقسيم الاستعارة باعتبار مراتبها في القوة والضعف

الدكتور
محمد عبد المنعم على متولى
مدرس البلاغة والنقد

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م



بسم الله الرحمن الرحيم

"... رب اشرح لى صدرى. ويسـر لى أمـرى. واحلـل عقـدة مــن لســانى. يفقهوا قولى"

صدق الله العظيم
(سورة طه /٢٥-٢٨)



"اعلم أن الاستعارة ... أمـد ميدانـا وأشـد افتنانـا
وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا وأوسع سعة
وأبعد غورا وأبعد نجدا فى الصناعة وغورا ...
إنها تبرز .. البيان أبدا فى صورة مستجدة تزيـد
قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا ....
إنها تعطيك الكثير من المعانى باليسـير مـن اللفـظ
حتى تخرج من الصدفـة الواحـدة عـدة مـن الـدرر
وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر ...."

الإمام عبد القاهر الجرجانى
أسرار البلاغة /٤٣،٤٢



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين خلق الإنسان علمه البيان والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله أفصح من نطق بلسان.

أما بعد،،،

فلقد برهن الإمام عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله- في كتابيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز على ما يتصف به من ذوق بلاغي ممتاز وقريحة وقادة تدرك أسرار الجمال وتميز الفروق الدقيقة بين صور الكلام حتى إنه ليحس بأن المعنى يتألم ويتظلم إذا لم يؤد بالعبارة الصالحة.

وهو من أجل هذا لا يقنع بإدراك الفرق بين تعبير وتعبير بل يريد أن يصل من ذلك إلى قانون شامل وأقسام واضحة وفروق بين العبارات.

وعلى هذا الأساس مضى إلى الاستعارة وقسمها قسمين:

١- مفيدة ٢- غير مفيدة

وبين في إيضاح الفرق بين هذين اللونين من أساليب التعبير

وتحدث عن الاستعارة المفيدة فجعل لها مكانة مرموقة بين فنون القول ثم قسمها قسمين: **أحدهما:** أن تنقل الاسم عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه وتجعله متناولا له تناول الصفة مثلا للموصوف وذلك قولك: "رأيت أسدا" وأنت تعني رجلا شجاعا. وقد عرف هذا القسم عند المتأخرين بالاستعارة التصريحية.

وثانيهما: أن يؤخذ الاسم على حقيقته ويوضع موضعا لا يبين فيه شيء يشار إليه فيقال: هذا هو المراد بالاسم والذى استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائبا منابه وذلك كقول لبيد:

وغداة ريح قد كشفت وقرة   إذ أصبحت بيد الشمال زمامها[1]

وقد عرف هذا القسم عند المتأخرين بالاستعارة المكنية.

ولست في مقام تفصيل ذلك هنا فقد وصل -رحمه الله- إلى كثير من القواعد التي وضعها ليحتكم إليها الناقدون وليتعلم منها الدارسون.

ولكنني سوف أوضح -بعون الله وتوفيقه- مسلكه -رحمه

---

[1]- أسرار البلاغة ٤٤،٤٥، ودلائل الإعجاز ٦٧.

الله- فى بيان تقسيم الاستعارة باعتبار مراتبها فى القوة والضعف[1].

وقد التزمت فى عرضى لهذا الموضوع بالحفاظ على الخط العام للإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- فى عرض المسائل وتسلسلها كما التزمت بشواهده وأمثلته مع العناية بالتحليل وبيان كيفية الاهتداء للمعانى البلاغية المستكنة وراء المعانى الظاهرية للأساليب.

رحم الله -عز وجل- الإمام عبد القاهر -ورحمنا جميعا معه- فأثره أكبر من أن يحمى وفضله أعظم من أن ينسى.

كما أسأله -سبحانه- أن يهبنا صدقا فى القول وإخلاصا فى العمل وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الدكتور

محمد عبد المنعم على متولى

١- الاستعارة التى أقصدها هنا هى التى عرفت عند المتأخرين بالاستعارة التصريحية وهى القسم الأول من أقسام الاستعارة المفيدة عند الإمام عبد القاهر.

تمهيد

الاستعارة فن من فنون المجاز الذى يمتع النفس ويؤثر فى الوجدان بخصائصها الأسلوبية الدقيقة وبدقائقها الفنية البليغة وبعروقها الضاربة فى معارض التخبيل والادعاء.

وقد أبان الإمام عبد القاهر الجرجانى "م.ت ٤٧١ أو ٤٧٣هـ" -رحمه الله- عن قيمها الجمالية العامة من حيث المبالغة والإيجاز والجدة والتبيين والإيضاح فى حديث شيق طويل يدل على تقدير الإمام عبد القاهر -رحمه الله- للإستعارة وهو تقدير رجل يتذوق فنون البلاغة ويضع كل فن فى مكانه ويدرك قيمة الاستعارة فى رسم الإحساس وتصوير الخاطر ونشير إلى شىء منه.

فيشير-رحمه الله- إلى تعدد فنونها واتساع مساحتها الأسلوبية بقوله:

"اعلم أن الاستعارة .. أمد ميدانا وأشد افتتانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا وأوسع سعة وأبعد غورا وأذهب نجدا فى الصناعة وغورا من أن تجمع شعبها وشعوبها وتحصر فنونها وضروبها..." وفى ميدان الجدة والطرافة يقول: "ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد

اكتسبت بها فوائد حتى تراها مكررة فى مواضع ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد وشرف منفرد وفضيلة مرموقة وخلابة موموقة" وفى ميدان الإيجاز: "تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر...".

وفى ميدان التشخيص والتبيين والإيضاح: "ترى بها الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحا والأجسام الخرس مبينة والمعانى الخفية بادية جلية ... وإن شئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون..."[١].

وجدير بالذكر أن الإمام عبد القاهر -رحمه الله- قد قصر هذه الفضائل والخصائص والمزايا على الاستعارة المفيدة.

حد الاستعارة

من المعلوم أن تعريف الاستعارة لم يولد فجأة وإنما تلقفته مهاد علمية متعددة من بيئة لغوية وأدبية وتفسيرية وبلاغية ولكل بيئة من هذه البيئات طابعها الخاص الذى يميزها عن غيرها من حيث النظرة العلمية والإحساس الفنى بل إن الإمام

١- أسرار البلاغة ٤٢، ٤٣.

عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- نفسه لم يضع لها التعريف المحدد مرة واحدة وإنما تدرج تعريفه لها وتطور من أسرار البلاغة إلى دلائل الإعجاز.

فبدأ بهذا التعريف الذى لا ينفك عن المعنى اللغوى للكلمة. فالاستعارة من العارية[1] وتدور المادة حول التحويل والذهاب وكل ذلك نلحظه فى نقل الكلمة من معناها الأصلى إلى المعنى المنقولة إليه.

قال: "اعلم أن الاستعارة فى الجملة أن يكون للفظ أصل فى الوضع اللغوى معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية"[2] فهو هنا يركز على عملية النقل التى تتناول المجاز بصفة عامة.

وفى مواطن أخرى أشار إلى العلاقة والقرينة أو الشرط الذى

---

[1]- راجع: لسان العرب ٣١٨٥/٤ وما بعدها مادة "عير".

[2]- أسرار البلاغة ٣٠، ٢٣٨ (ومعلوم أن المتأخرين قد عرفوا الاستعارة بمعنيين: ١- **المعنى المصدرى:** وهى: استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين ما وضع له وما استعمل فيه مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأول. ٢- **المعنى الاسمى:** وهى اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له .. إلخ التعريف السابق.

يصحح عملية التجوز فقال: "اعلم بعد أن فى إطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطا وهو: أن يقع نقله على وجه لا يعرى معه من ملاحظة الأصل"[١].

ثم يصدع أخيرا بفلسفة هذه الأصول فى هذه التعريفات المحددة فيقول عن الاستعارة التصريحية: "أن تجعل الشىء الشىء ليس به" ويقول عن الاستعارة المكنية[٢]: "أن تجعل للشىء الشىء ليس له. تفسير هذا: أنك إذا قلت: "رأيت أسدا" فقد ادعيت فى إنسان أنه أسد وجعلته إياه ولا يكون الإنسان أسدا. وإذا قلت: "إذ أصبحت بيد الشمال زمامها" فقد ادعيت أن للشمال يدا ومعلوم أنه لا يكون للريح يد"[٣].

وهذا يؤكد أن الاستعارة تشكل الأشياء تشكيلا آخر وتمحو طبائعها وتعطيها صفات وأحوالا أخرى يفرغها الشاعر أو الأديب عليها وفقا لحسه وضروب انفعالاته وتصوراته[٤].

١- أسرار البلاغة /٣٩٥.

٢- هذا تقسيم للاستعارة على حسب ما يذكر من الطرفين ولم يصرح بهذين الاصطلاحين إلا فيما بعد الإمام عبد القاهر الجرجانى "راجع حديث العلامة السكاكى عنهما فى مفتاحه/ ٣٧٣ وما بعدها).

٣- دلائل الإعجاز /٦٧ وانظر أسرار البلاغة ٤٤-٤٧.

٤- الصور البيانية وقيمتها البلاغية / ٢٤٤.

ثم استقر تعريف الاستعارة فى مدرسة المتأخرين[١] فقال الخطيب القزوينى "م.ت ٧٣٩هـ" -رحمه الله- "هى ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له"[٢].

وكما تطورت الاستعارة فى تعريفها بتطور الزمن واختلاف المكان تطورت فى قوتها وضعفها "ومرد هذا التفاوت راجع إلى ملاحظة الصفة المشتركة المقصودة -وجه الشبه- وليس معنى هذا التفاوت الرداءة كلا ولكن التفاوت هذا يفسح المجال أمام الأديب ويوسع ميدان التعبير ليأخذ كل غرض من الأغراض ما يلائمه ولتجد العواطف المتفاوتة فى هذا التفاوت فى الصور ما يحملها ويصورها بأمانة دون تزييف فيها بزيادة أو نقصان وخير شاهد على ما قلت وقوع هذه الصور المتفاوتة فى جيد الشعر والنثر وفى قمة الجمال والكمال وهو القرآن الكريم"[٣].

وقد شغل الإمام عبد القاهر الجرجانى بتحرير هذه القضية وتحقيقها فذكر أن الاستعارة من شأنها أن تجرى فيها الفضيلة وأن تتفاوت تفاوتا شديدا لأنها تعتمد على التشبيه الذى تختلف طرقه -

---

١- التصوير المجازى والكنائى /٤٠.

٢- الإيضاح /١٥٨.

٣- سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر ٤٦/٢.

وكأنه بذلك يضع الأسس التى ينبغى أن يقوم عليها النقد النزيه[١]- يقول: "وأنا أريد أن أدرجها من الضعف إلى القوة وأبدأ فى تنزيلها بالأدنى ثم بما يزيد فى الارتفاع لأن التقسيم إذا أريغ فى خارج من الأصل فالواجب أن يبدأ بما كان أقل خروجا منه وأدنى مدى فى مفارقته"[٢].

وإذا كان الأمر كذلك فإليك البيان:

مسلك عبد القاهر فى بيان تقسيم الاستعارة[٣] باعتبار مراتبها فى الضعف والقوة

اتخذ الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- فى عرضه لمراتب الاستعارة منهج التدرج من الأدنى إلى الأعلى نظرا لأن الاستعارة فرع أصل هو الحقيقة والبدء بما هو أقرب إلى الأصل أنسب طريق فى باب التقسيمات - وقسمها إلى ثلاثة أضرب.

١- تربية الذوق البلاغى عند عبد القاهر الجرجانى /٥٨٠ وقضية الإعجاز القرآنى /٥١٣.

٢- أسرار البلاغة /٥٥.

٣- الاستعارة التى نقصدها هى التى عرفت عند المتأخرين بالاستعارة التصريحية (أى المصرح فيها بالمشبه به) وهى القسم الأول من أقسام الاستعارة المفيدة عند الإمام عبد القاهر -رحمه الله- (راجع: أسرار البلاغة /٣٠ وما بعدها ودلائل الإعجاز /٦٧).

الضرب الأول:

وجعل الضرب الأول منها -وهو أقرب أضربها من الحقيقة[١]- ما كان معنى الكلمة المستعارة موجودا فى المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ويكون جهة التغاير بينهما هى الخصائص والصفات التى ينفرد بها كل منهما عن الآخر كانفراد العدو بالحركة على الأرض والطيران بالحركة فى الهواء أو انفراد أحدهما بزيادة السرعة فى حركته عن الآخر.

ونبه إلى أن طريق الاستعارة فى هذا النوع هو: أن يجعل

---

[١]- إنما وصف هذا الضرب بهذا الوصف بالنسبة إلى الضربين التاليين لا بالنسبة إلى التشبيه لأن الاستعارة تبدأ من حيث ينتهى التشبيه وحسبها ذلك لتكون فى طبقة أعلى منه على أى حال من أحوالها وإلا فقد وردت فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف كما وردت فى شعر الفحول كما سنرى فى عرضنا لشواهد هذا الضرب من الاستعارة. (البلاغة التطبيقية /١٥٠). ويضاف إلى ذلك أن هذا وصف للأساليب وتحديد لأثرها ولكن الذى يحدد قيمتها البلاغية إنما هو موقعها فى سياقها ومدى مطابقتها لهذا السياق فإذا قلنا: إن الاستعارة أبلغ من التشبيه أو أن بعض أنواعها أبلغ من بعض لم يكن غرضنا أنها حيث وجدت رفعت قدر الكلام على أسلوب الحقيقة ولاشك أن هناك كثيرا من الأدب والشعر جرى على أسلوب الحقيقة وهو يفوق من الناحية البلاغية والفنية كثيرا من الاستعارات (التصوير البيانى هامش /٢٠٨).

الأفضل والأزيد فى معنى الجنس هو المستعار والأنقص هو المستعار له .. ووضح ذلك بأن ذكر أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو كلها جنس واحد من حيث الحركة على الإطلاق إلا أن الحركة فى الطيران لها ما يميزها ويجعل هذا الاسم خاصا بها وهو: ارتباطها بذى الجناحين. والانقضاض له ما يميزه وهو: كون الحركة فيه من أعلى إلى أسفل. والسباحة كذلك تتميز بأنها: حركة فى الماء والعدو يتميز بأنه: حركة سريعة على الأرض .. فإذا وجد فى شيء ذى حركة شبها من حركة غيره استعار له اسمه[1].

وساق لهذا الضرب عدة أمثلة منها:

قول الشاعر:

وضيف جاءنا والليـــل داج ... وريح القر يحفز منه روحـــا

فطرت بمنصلى فى يعملات ... دوامى الأيد يخبطن السريحا[2]

يقول: غشيهم الضيف وبرد الشتاء تدفع روحه للخروج لضعفه فأسرع بسيفه إلى نوق يعقرها ليقريه فيسيل الدم على أيديها

١- راجع: أسرار البلاغة /٥٥.

٢- دج الليل: أظلم والمنصل: السيف واليعملات: جمع يعملة وهى: الناقة القوية على العمل ودوامى الأيدى: دميت أيديها من شدة السير أو العمل ووطنها الحجارة والأيد: مخفف الأيدى والسريح: جمع: سريحة وهى: خرق أو سيور تلف على أرجل الإبل.

وتضرب بأقدامها القيود المربوطة بها من ألم الجراح والنزع.
وشاهدنا فى قول الشاعر: "فطرت" حيث شبه العدو بالطيران بجامع قطع المسافة بسرعة فى كل منهما ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ثم استعير الطيران للعدو ثم اشتق من الطيران طرت بمعنى عدوت على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة إسناد الطيران للمتكلم وهو إنسان لا يطير لأن الطيران فى الأصل لذى الجناح الذى يقطع المسافة فى الجو.

ونلاحظ أن الجامع[1] بين المستعار له والمستعار منه وهو: قطع المسافة بسرعة داخل فى مفهوم العدو وهو المستعار له كما هو داخل فى مفهوم الطيران وهو المستعار منه لأن العدو قطع المسافة بسرعة فى الأرض والطيران قطع المسافة بسرعة فى الهواء إلا أنه -أى الجامع بين الطرفين- فى الطيران أقوى منه فى العدو ولذلك استعير له.

---

[1]- الجامع هو: ما قصد اجتماع الطرفين فيه وهو: ما يسمى فى التشبيه "وجه الشبه" وسمى هنا جامعا لأنه جمع المشبه مع أفراد المشبه به تحت مفهومه وأدخله فى جنسه إدعاء - وهو لابد أن يكون فى المستعار منه أقوى لأن الاستعارة مبنية على المبالغة فى التشبيه والمبالغة فيه توجب إلحاق المشبه بما هو أكمل فى وجه الشبه (المنهاج الواضح للبلاغة ٢٣٩/٣، ١١١/٥ ونظرية البيان /٢٠٨).

ومن ذلك أيضا قول علقمة أو امرأة من بنى الحارث بن كعب ترثى قتيلا يخصها وتصفه بالفروسية:

لو يشا طار به ذو ميعة لاحق الآطال نهد ذو خصل[١]

تقول: إنه كان فارسا يجيد الكر على الأعداء فلو أراد الغزو طار به جواد نشيط -ضامر الخاصرتين- مرتفع الجسم حسن الشكل- مجتمع الشعر.

فقد استعارت الطيران وهو: قطع المسافة بسرعة فى الهواء للعدو وهو: قطع المسافة بسرعة على الأرض بجامع قطع المسافة بسرعة فى كل وهذا الجامع جزء من حقيقة الطرفين ولكنه فى الطيران أقوى منه فى العدو ولذلك استعير له.

ومن هذا الباب إلا أنه أعلى درجة وأرفع منزلة ما جاء فى الخبر: "خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها"[٢] يريد: أنه مستعد للجهاد كلما سمع صيحة مستغيث

١- يشا: أصله "يشاء" والضمير فيه لمن ترثيه، الميعة: النشاط وأول جرى الفرس المضمر ولاحق: ضامر والآطال: جمع إطل بكسر الهمزة: الخصر والنهد: مرتفع الجسم حسن الشكل والقوى والخصل: جمع "خصلة" وهى القطعة من الشعر.

٢- هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الإمارة -باب فضل الجهاد والرباط /١٣/٣٤،٣٥ مرويا عن أبى هريرة -رضى الله عنه- "واللفظ مختلف". والعنان بكسر العين: اللجام. والهيعة: بفتح الهاء وإسكان الياء: الصوت يسمعه عند حضور العدو.

من المسلمين أسرع إليه ليقاتل معه.

شبه العدو الذى هو قطع المسافة بسرعة فى الأرض بالطيران الذى هو قطع المسافة بسرعة فى الهواء ثم استعير لفظ المشبه به للمشبه واشتق من الطيران "طار" بمعنى "عدا" والجامع بينهما: قطع المسافة بسرعة وهو جنس داخل فى مفهوميهما إلا أنه فى الطيران أقوى[١] منه فى العدو كما هو الشأن فى الجامع.

وواضح أن هذه الاستعارة القريبة من الحقيقة كشفت ما أراد البيان كشفه من فرط استجابة هذا المجاهد لداعى الله -عز وجل- وأنه مندفع فى أمر ربه اندفاعة فائقة، وكيف لا وهو ممسك بعنان فرسه مستعد تمام الاستعداد للانطلاق به إلى الجهاد فور سماع الدعوة إليه فهو فى وضع الاستعداد التام دائما كما يقولون وهذا المجاهد لا يمل الجهاد مهما تكرر ولا يتوانى عنه مهما كانت عواقبه إنه كلما سمع هيعة طار إليها.

انظر إلى قوله: "ممسك بعنان فرسه" وتأمل ما وراء ذلك من فرط التأهب والترقب وانظر إلى كلمة "كلما" وما وراءها من سرعة

---

[١]- فى المطول /٣٦٦. الطيران: قطع المسافة بالجناح وليست السرعة داخلة فيه بل هى لازمة له فى الأكثر كالجرأة للأسد والأولى أن يمثل .. بقوله تعالى "وقطعناهم فى الأرض أمما" (سورة الأعراف /١٦٨) استعير التقطيع لتفريق الجماعة بجامع إزالة الاجتماع الداخل فى مفهومهما.

الاستجابة وكأنها تأكيد للمعنى فى قوله "ممسك" وانظر فى دقة اختيار "سمع" وحسن صياغتها فالرجل -أولا سمع الهيعة بنفسه فلم ينبهه أحد إليها وهذا يفيد أنه مشغول بأمن المسلمين متنبه إلى مواطن الخطر عليهم وهو لشدة انشغاله بها سمع الهيعة فور حدوثها وكأن هذا وذاك يمهد لكلمة "طار" ويهيىء النفس لاستيعاب صورة مجاهد يطير تلبية لأمر ربه فالاستعارة هنا وإن كانت قريبة قربا يجعلها لصيقة بالحقيقة إلا أن حسن صياغة الأسلوب ودقة اختيار عناصره رفعت من قدر الاستعارة إلى درجة عالية لم تستطع أن تصل إليه فى يعملات ... إلخ ولو بشا طاربه ذو ميعة ... إلخ لفقدان التوطئة والتمهيد الذى هيىء لهذه الاستعارة وبمثل هذه الفروق الدقيقة التى تشبه الفتات النفيس يتفاضل البيان[١].

ومن شواهد هذا الضرب أيضا استعارة الفيض لانبساط الفجر فى قول الشاعر:

يتراكمون على الأسنة فى الوغى   كالفجر فاض على نجوم الغيهب[٢]

وذلك لأن الفيض موضوع لحركة الماء حين يفارق مكانه فينبسط ويمتد فى الحيز الذى يحيط به. وللفجر فى نظر العين - حركة شبيهة بذلك. فإن ضوءه ينبسق من مكان ثم يتسع وينبسط

١- راجع: التصوير البيانى /٢٠٠،٢٠١ والصور البيانية /٢٦١،٢٦٢.

٢- الغيهب: ظلام الليل.

على جوانب الأفق فالشبه بين الفجر والماء الذى يفيض هو الانبساط والاتساع وهو داخل فى حقيقة الطرفين لأن للفجر انبساطا وحالة شبيهة بانبساط الماء وحركته فى فيضه.

والاستعارة تبعية فى الفعل إذ شبه انبساط الفجر بانبساط الماء ... واستعار الفيض لاتساع الفجر واشتق منه الفعل "فاض" وهى استعارة قريبة لجريانها فى جنسين تجمعهما الحركة الواحدة لكن لو نظرنا إلى هذا اللفظ "فاض" فى مقام آخر مثل الثناء على رجل كريم بقولنا: فاض كرمه على المعوزين أو فاض الأمير على من حوله فإن هنا نقلة تخرج بالصورة عما نحن فيه هنا "لأن القصد الآن إلى المستعار الذى توجد حقيقة معناه من حيث الجنس فى المستعار له"[١] و"فاض" فى المثالين الأخيرين بمعنى "جاد" والفيض والانبساط ليس جزء فى مفهوم الجود أما الذى يدخل فى الصورة التى معنا فنحو قول أبى تمام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف:

وقد نثرتهم روعة ثم أحدقوا   به مثلما ألفت عقدا منظما[٢]

وقول المتنبى يخاطب سيف الدولة:

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة   كما نثرت فوق العروس الدراهم[٣]

١- أسرار البلاغة /٥٧ وراجع: سمات البلاغة ٢/٤٩،٥٠.

٢- الروعة: الفزعة بسكون الزاى وأحد قوابه: أحاطوا به.

٣- نثرتهم: فرقتهم والأحيدب، جبل بالثغور الرومية هزم عنده أبو فراس الحمدانى جيوش الروم شر هزيمة.

يشير إلى أن سيف الدولة تحكم فى الروم قتلا وأسرا ونثر جيشهم فوق هذا الجبل نثرا كما تنثر الدراهم على العروس فتفرقت مصارعهم على هذا الجبل كما تتفرق مواقع الدراهم إذا انثرت على العروس.

فكلمة "نثرتهم" فى البيتين مستعارة فى قول أبى تمام لتفرق المقاتلين دفعة على غير نظام تأهبا لتنظيم مواقعهم ومستعارة فى قول المتنبى لتساقط المنهزمين قتلى على غير نظام.

"وذلك لأن "النثر" فى الأصل للأجسام الصغار كالدراهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها لأن لها هيئة مخصوصة فى التفرق لا تأتى فى الأجسام الكبار ولأن القصد "بالنثر" أن تجمع أشياء فى كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة واحدة والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك لكنه لما اتفق فى الحرب تساقط المنهزمين على غير ترتيب ونظام كما يكون فى الشيء المنثور عبر عنه بالنثر ونسب ذلك الفعل إلى الممدوح إذ كان هو سبب ذلك الانتثار فالتفرق الذى هو حقيقة النثر من حيث جنس المعنى وعمومه موجود فى المستعار له بلا شبهة"[١].

"النثر" إذن مستعمل فى الأجسام الصغار -كما قال الإمام عبد القاهر- ولكن الشاعر استعمله فى تفريق الرجال المصروعين فى

١- أسرار البلاغة /٥٧،٥٨.

الحرب فقد شبه إسقاط المنهزمين فى الحرب بلا ترتيب فى جهات مختلفة بالنثر بجامع التفريق على غير نظام فى كل منهما ... واستعير "النثر" من المشبه به للمشبه ثم اشتق من "النثر" بمعنى الإسقاط "نثر" بمعنى أسقط على سبيل الاستعارة التبعية.

ونلاحظ أن التفريق داخل فى مفهوم كل من الإسقاط على غير نظام والنثر مما جعل الاستعارة تجرى فى محيط واحد ويحكم عليها بالقرب.

واستعمال "النثر" مع المنهزمين يصور تمكن الممدوح منهم وتصرفه فيهم تصرفا مطلقا فما هم فى يده إلا قطع صغيرة جامدة لا تملك من أمر نفسها شيئا.

"واحذر النقد الطائش الذى يوجه إلى مثل هذا التصوير الدقيق ويصفه بالانفصال وعدم تناسق الأجزاء لأن صور القتل والدماء تثير فى النفس الانقباض وتقشعر منها الجلود وأين هذا من صورة نثر الدر أو الدراهم على تاج العروس ذلكم المنظر الذى تطمئن له القلوب وتتبسط له الأسارير؟

فهذا التصور غافل عن مقام الصورة ودقائق التصوير. فالشاعر يصور فعل الممدوح -سيف الدولة- مع الأعداء ويعبر عن أحاسيسه بالفرحة وقد ظفر بالأعداء وتمكن منهم وأسقطهم شر إسقاط فكان هذا التردى ومنظر هذه الجثث المخضبة بالدماء

هو الذى يبهجه ويغتبط له لأنه يعنى نصره على الأعداء بل هو الغاية التى كان يطمح وراءها.

فجاء تصوير الشاعر مرآة عاكسة لكل ما يختلج فى نفسية الممدوح وانتقى أجزاء تفوح بالبهجة والسرور لارتباطها بما يبهج وهو "النثر" لأنه يستعمل مع الجواهر واللآلىء كثيرا كما قال الله تعالى "وإذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا" (سورة الإنسان /١٩) فى الصفاء والجمال والصون.

وقال شوقى:

قم فى فم الزمان وحى الأزهرا   وانثر على سمع الزمان الجوهرا[١]

ثم تمم الصورة بهذه الهيئة الحسية التى تدل على السرور دلالة أصلية وهى قوله "كما نثرت فوق العروس الدراهم" وبذلك اتحد النظم مع الإحساس وتناسقت أركان التصوير فى الدلالة على الغرض المقصود"[٢].

ومما يزيد استعارة "نثر" وضوحا أن كلمة "نظم" فى الأصل لجمع الجواهر وما يماثلها فى سلك ثم لما حصل فى الشخصين من الرجال أن يجمعهما الحاذق المبدع فى الطعن فى رمح واحد ساغ أن

١- الشوقيات ١٥١/١.

٢- التصوير المجازى والكنائى ٦٨،٦٩.

يعبر عن هذا النوع من الطعن بالنظم كقولهم: "انتظمها برمحه" وكقول الشاعر:

قالوا: وينظم فارسين بطعنة يوم اللقاء ولا يراه جليلا

والشاهد فى قوله "ينظم" بمعنى يجمع لأن النظم فى الأصل لما يجعل فى السلوك من الحبوب والأجسام الصغار فحصوله فى أشخاص الرجال إنما يكون على سبيل المجاز لا الحقيقة ومن هنا ساغت استعارة النظم لجمع الفارسين فى طعنة[1].

"ولما كان الجامع بينهما وهو مطلق الضم داخلا فى مفهوم الطرفين كادت هذه الاستعارة أن تلحق بالحقيقة"[2] "فلو فرضنا أن يكثر وجوده -أى الضم- فى الأشخاص الكبيرة لكان لفظ "النظم" أصلا وحقيقة فيها كما يكون حقيقة فى نحو الحبوب"[3].

ومن هذا استعارة الخرق لشق الصفاة فى قول البحترى:

وفى يدك السيف الذى امتنعت به صفاة الهدى من أن ترق فتخرقا[4]

لأن أصل "الخرق" أن يكون فى الثوب وهو فى الصفاة:

١- أسرار البلاغة /٥٨.

٢- البلاغة التطبيقية /١٤٨.

٣- أسرار البلاغة /٥٩.

٤- الصفاة: الحجر الصلد الضخم لا ينبت.

استعارة ولو أنه سلك طريق الحقيقة لقال: تشق أو تصدع لأن الصفاة توصف بالشق أو بالصدع على سبيل الحقيقة غير أنه لما قال: "ترق": قربت حال "الصفاة" من حال الثوب[1].

فقد شبه الشق بالخرق بجامع التفريق في كل منهما ... ثم استعير الخرق: للشق ثم اشتق من الخرق بمعنى الشق تخرق بمعنى تشق على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة هي إسناد الفعل إلى ضمير الصفاة.

فترى الجامع –وهو التفريق داخلا في مفهوم الطرفين وإن كان في المستعار منه أقوى وأظهر كما هو الشأن في الاستعارة.

ومن هذا الضرب استعارة "التمزيق" لتفريق قبائل سبأ في البلاد في قوله تعالى "ومزقناهم كل ممزق" (سورة سبأ /١٩) لأن التمزيق حقيقة في الثوب وقد استعير لتفريق الناس والجامع بينهما هو: إزالة الاتصال وذلك متحقق في الطرفين وإن كان في التمزيق أشد ولهذا كانت الاستعارة قريبة من الحقيقة.

ومثلها استعارة "التقطيع" لتفريق الناس إلى شعوب وأمم في قوله تعالى: "وقطعناهم في الأرض أمما" (سورة الأعراف ١٦٨) لأن التقطيع موضوع لإزالة الاتصال من الأجسام التي تلتزق

١- أسرار البلاغة /٥٩.

أجزاؤها والجامع بين التقطيع والتفريق هو إزالة الاجتماع فى كل منهما وهو متحقق فى الطرفين وإن كان فى التقطيع أشد وأقوى.

ويلاحظ أن "التقطيع" هنا مستعار لتفريق الجماعة و"النثر" هناك[١] مستعار لتفريق المنهزمين المتساقطين فمع أن المستعار له وهو: التفريق فى الموضعين إلا أن اللفظ المستعار اختلف فيهما مرة بالقطع ومرة بالنثر.

ولعل هذا التنويع يكمن فى أن اللفظ المستعار يطوى وراءه إحساسات ومشاعر هى التى تقود إلى اختياره وتفضيله فى موطنه لأداء المعنى المراد من وضعه فى السياق وهذا يؤكد أن الاستعارة ليست حركات فارغة تنقل بها الألفاظ وإنما هى خطرات روحية ومثيرات نفسية وراء اللفظ المستعار.

فالنثر يستعار لتفريق المتساقطين لأنه تفريق يلاحظ فيه سرور الممدوح وتمكنه من الأعداء فهو تفريق يقع به الاغتباط لأنه فى مقام المدح وليس الأمر كذلك فى التفريق الحاصل بالتقطيع فليس فيه سرور وإنما هو تمزيق لعلائق الأخوة ووشائج القربى لقلة الألفة حتى صارت كل جماعة تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى ولذلك عبر عنهم بلفظ "أمما" فالتقطيع أبرز هذه المعانى فى صورة مجسدة وكأن

١- أى فى قول المتنبى: نثرتهم فوق الأحيدب نثرة .. إلخ راجع ص١٨ من هذا البحث.

ذهابها شيء محسوس تراه الأعين وتحسه الأيدى لأنه فى مقام العقوبة والقدح[١].

ومن هذا الضرب استعارة "الإثراء" لزيادة المجد فى قولهم: أثرى فلان من المجد" واستعارة "الإثراء" لزيادة الشوق أو الحزن أو الغرام والوجد فى قولهم: "أثرى فلان من الشوق أو الحزن أو الوجد". ومنه أيضا استعارة "الخياطة" وهى موضوعة لضم أطراف الثوب بالخيط لزرد الدروع وهو موضوع لضم حلقات الدروع بالسلك فى قول القطامى:

لم تلق قوما هم شر لإخوتهم   منا عشية يجرى بالدم الوادى

نقريهم لهذميات نقد بهـــا   ما كان خاط عليهم كل زراد[٢]

شبه زرد الدروع بخياطة الثوب بجامع ضم الأطراف فى كل واستعيرت الخياطة للزرد واشتق منها الفعل "خاط".

فالجامع متحقق فى الطرفين وإن كان فى الخياطة أشد لأن الخياطة ضم أطراف الخرق بخيط يسلك فيها على الوجه المعلوم

---

[١]- التصوير المجازى والكنائى ٦٩،٧٠.

[٢]- الكامل ٥٦/١ اللهذميات: جمع لهذم كجعفر وهو السنان القاطع والقرى: طعام الضيف وقد استعير للضرب باللهذميات على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية نقد بها: نقطع ما كان قد خيط عليهم وهو الدروع والزراد: صانع الزرد وهو الدرع.

والزرد ضم حلق الدرع بمداخلة توجد بينها على الوجه المعلوم وفرق بين الأمرين فى القوة[1].

وهكذا ترى الحدود بين معانى الكلمات تدق وتخفى فى هذا الضرب من الاستعارة حتى ترى الكلمة مجازا وكأنها حقيقة أو حقيقة وكأنها مجاز[2].

ونلاحظ أن الإمام عبد القاهر الجرجانى قد نبه -خلال عرضه لأمثلة هذا الضرب- لأمرين مهمين جدا:

أولهما: أن اللفظ الواحد قد يستعار فى موطن فتدخل استعارته فى هذا النوع ويستعار فى موطن آخر فلا تكون منه كـ "الخرق" الذى هو ثلم فى الثوب إذا أضيف إلى "الصفاة" كان من هذه الاستعارة القريبة من الحقيقة. وإذا أضيف إلى "الحشمة" -فقلت: خرق الحشمة- كانت الاستعارة من نوع آخر[3] وكـ "الفيض" إذا أضيف إلى الفجر كان منه وإذا أضيف إلى الجود والكرم لم يكن منه[4] والتقطيع إذا أضيف إلى الأمم كان منه وإذا أضيف إلى الكلام أو الوقت -قلت: قطع عليه كلامه أو: نقطع الوقت بكذا- لم يكن

١- أسرار البلاغة /٦٢.

٢- التصوير البيانى /٢٠٥.

٣- راجع: أسرار البلاغة /٥٩.

٤- انظر: المصدر السابق ٥٧.

منه[١].

ذلك لأن بناء هذا النوع على كون الطرفين من جنس واحد فما لا يتصور فيه ذلك يكون خارجا عنه ومن لم يتنبه إلى ذلك وقع فى الخطأ عندما يحاول رد كل مثال إلى النوع الذى هو منه.

وثانيهما: أن الخصائص والمميزات التى تفرق بين الطرفين المشتركين فى الجنس قد يكون مرجعها إلى اللغة بأن تكون اللغة صريحة فى تحديد هذه المميزات وحينئذ يكون أمر الاستعارة ظاهرا فلا يتأتى ادعاء جعل الكلام من قبيل الحقيقة -وقد يكون مرجعها إلى العرف كما فى "أثرى فلان من المجد" فقد كثر استعمال العرب للثراء فى كثرة المال وإن كان أصله يعم الكثرة فى المال وغيره وشيوع الاستعمال يجعل الكلام كالحقيقة فإذا أضيف إلى المجد - فقلت: أثرى فلان من المجد- كان استعارة وإن كان بحسب وضعه اللغوى حقيقة لشمول معناه الكثرة فى المال وغيره ومن هنا يقع اختلاف النظر فى جعل هذا الاستعمال ونظائره من قبيل الحقيقة أو المجاز ... ولذلك جعل العلامة فخر الدين الرازى "م.ت ٦٠٦هـ" - رحمه الله- استعمال "الخرق" فى شق الصفاة من باب الحقيقة الصرفة معللا ذلك بأن حقيقة كل منهما هو التفريق لا غير. أما أن هذا للثوب وذاك للصفاة فخارج عن مفهومهما واللفظان مترادفان فلا

---

[١]- راجع: أسرار البلاغة /٦٠.

مجاز ولكنه عاد فقال: ولو قدرنا دخول تلك الخصوصية فى اسم الخرق كان استعماله فى الحجر على طريق الاستعارة[١].

الضرب الثانى من أضرب الاستعارة:

نبه الإمام عبد القاهر الجرجانى إلى أن هذا الضرب يشبه الضرب الأول من وجه ويخالفه من وجه –ولعله يلفت النظر بهذا التنبيه إلى أن مرتبة هذا القسم أعلى مرتبة من سابقه فى باب الاستعارة– ثم أخذ فى بيان مضمونه. فأوضح أن الشبه فيه مأخوذ من صفة موجودة فى كل من الطرفين على جهة الحقيقة كالتلألؤ الموجود حسا فى الإنسان والشمس فى قولنا: "رأيت شمسا" تريد إنسانا يتهلل وجهه كالشمس.

وكالشجاعة الموجودة غريزة فى الإنسان والسبع فى قولنا: "رأيت أسدا" تريد رجلا: وأن هذه الصفة لا يتميز وجودها فى المستعار منه عن وجودها فى المستعار له إلا فى مراتب قوتها وضعفها وزيادتها ونقصها.

وبعد أن بين هذا المضمون أشار إلى وجه المشابهة بين الضربين بالإحالة إلى ما ذكره سابقا فى استعارة الطيران لغير ذى الجناح من أن وصف الحركة السريعة موجود على الحقيقة فى كلا

١- راجع: نهاية الإيجاز ١٨٢،١٨٣.

الطرفين وإن تفاوت فيها ضعفا وقوة.

ثم بين وجه المخالفة بأن الصفة التى بهـا الاشتراك موجودة بالنسبة إلى الضرب الثانى فى طرفين مختلفين فى الجنس كاختلاف جنس الإنسان والشمس أو موجودة فى طرفين متحدين فى الجنس ومختلفين فى النوع كالإنسان والأسد وبالنسبة إلى الضرب الأول موجودة فى شيئين متحدين فى الجنس كاتحاد الطيران والعدو فى جنس الحركة[1]، فكلاهما مرور وقطع للمسافة وإنما يقع الاختلاف بالسرعة وحقيقتها: قلة تخلل السكون للحركات وذلك لا يوجب اختلافا فى الجنس[2]، وهنا توقع الإمام عبد القاهر أن يتوهم متوهم أن اشتراك العدو والطيران فى الجنس لا يختلف فى شىء عن اشتراك "المشفر" و"الشفة" فى الجنس فجعل الأول من الاستعارة المفيدة والثانى من الاستعارة اللفظية غير المفيدة لا وجه له.

فأجاب عن ذلك بإثبات الفرق بينهما وهو:

أن الوصف الذى يتميز به أحد الطرفين المشتركين فى

١- وهذا الفرق هو الذى عبر عنه العلامة الرازى بقوله: "إن فى القسم الأول اشتراكا فى الذات واختلافا فى الصفات وفى الثانى اشتراك فى الصفة واختلاف فى الذات" (نهاية الإيجاز /١٨٢) ولكن تعبير الإمام عبد القاهر أبين وأوضح.

٢- راجع: أسرار البلاغة ٦٢،٦٣.

الجنس مرعى فى الاستعارة المفيدة وهو ما يتجه إليه المستعير ليفيده بها كإفادة سرعة الفرس بجعله طائرا وإفادة لين الحركة وسهولتها فى جعله سابحا وليس مرعيا فى الاستعارة غير المفيدة لأن الحاصل فيها هو مجرد نقل اللفظ دون نظر إلى إعطاء صفة المستعار للمستعار له إفادة تحسين أو تقبيح أو مبالغة -واحتج فى ذلك بقول العجاج فى التعبير عن أنف المرأة الحسناء بالمرسن وقول السيدة عائشة -رضى الله عنها- فى التعبير عن ظلف الشاة "بالفرسن" وهو خف البعير.

حيث لم يرد العجاج بقوله: "ومرسنا مسرجا"[1] أن يشبه أنف المرأة بأنف نوع من الحيوان لأن هذا العضو من غير الإنسان لا يوصف بالحسن كما يكون ذلك فى العين والجيد وهكذا استعارة "الفرسن" للشاة فى قول السيدة عائشة -رضى الله عنها- "ولو فرسن

---

[1]- قوله هذا معطوف على ما قبله، يذكر صاحبته ليلى:

-أزمان أبدت واضحا مفلجا

- أغر براقا وطرفا أبرجا

- ومقلة وحاجبا مزججا

-وفاحما ومرسنا مسرجا

والفاحم: شعرها الأسود ثم ذكر أنفها. والمرسن: فى الأصل للحيوان لأنه الموضع الذى يقع عليه الرسن وهو حبل الزمام يوضع على الأنف يعنى أنفا يبرق كالسراج. (أسرار البلاغة /٣١).

شاة"[1] وهو للبعير فى الأصل -ليس لأن يشبه هذا العضو من الشاة به من البعير كيف ولا شبه هناك. وليس إذن فى مجىء "الفرسن" بدل "الظلف" أمر أكثر من العضو نفسه[2].

ومن هذين الضربين المتفاوتين هذا التفاوت اليسير تتكون الاستعارة القريبة.

هذا: ونلاحظ أن هذا التقسيم الذى جعل أساسه عند الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- مدى العلاقة بين المستعار منه

١- حديث أم المؤمنين السيدة عائشة -رضى الله عنها- تمامه: "يا نساء المؤمنين تهادوا ولو فرسن شاة فإنه ينبت المودة ويذهب الضغائن" (فتح البارى ٢٣٥/٥) وجاء الحديث مرويا عن أبى هريرة -رضى الله عنه- واللفظ مختلف (فتح البارى ٢٣٣/٥ أول كتاب الهبة) و"فتح البارى ٤٥٩/١٠ كتاب الأدب - باب لا تحقرن جارة لجارتها" وصحيح مسلم بشرح النووى ١١٩/٧ - كتاب الزكاة - باب الحث على الصدقة ولو بالقليل والفرسن: عظيم قليل اللحم وهو للبعير موضع الحافر للفرس ويطلق على الشاة مجازا، وأشير بذلك إلى المبالغة فى إهداء الشىء اليسير وقبوله لا إلى حقيقة الفرسن لأنه لم تجر العادة بإهدائه أى لا تمنع جارة من الهدية لجارتها الموجود عندها لاستقلاله بل ينبغى أن تجود لها بما تسير وإن كان قليلا فهو خير من العدم، وإذا تواصل اليسير صار كثيرا وهو كناية عن التحابب والتوادد.

٢- أسرار البلاغة ٦٣-٦٥.

أو المستعار لـه وبحث أنسـاب المعـاني قد تناولـه المتـأخرون مــن البلاغيين مـن زاويـة أشبه بمقـولات المنطـق منهـا بـدلالات الكــلام وحقائق اللغة والبيان لأنهم ذكروا أن الاستعارة باعتبار الجامع تنقسم إلى قسمين: **أحدهما:** ما يكون الجامع فيه داخلا فى مفهـوم الطرفيـن كاستعارة الطيران للعدو كما في قول امرأة مـن بنـى الحـارث ترثـى قتيلا: لو يشا طاربه ذو ميعة .. إلخ وكما جاء فى الخبر: "كلما سـمع هيعة طار إليها" فإن الطـيران والعدو يشـتركان فـى أمـر داخـل فـى مفهومهمـا وهـو قطـع المسـافة بسـرعة ولكـن الطـيران أسـرع مـن العدو ... **والثاني:** مـا يكـون الجـامع فيـه غـير داخـل فـى مفهـوم الطرفين كقولك: رأيـت شمسـا" وتريـد إنسـانا يتهلـل وجهـه فالجـامع بينهما التلألؤ وهو غير داخل فى مفهومهما[١].

"وهكذا تختلط مقولات المنطق بمسائل اللغة والأسلوب فتفرق بين استعارة الطيران للعدو واستعارة التقطيـع للتفريـق لأن الجـامع لازم للماهية فى المثال الأول وداخل فى مفـهومـهما فى المثال الثـانى وطريقتنا التى استلهمت منهج الإمام عبد القاهر لم تجد فرقا لأنها لـم تجر الأقسام على أصول منطقية وإنما اعتمدت الدلالات اللغوية التى تقرر أن العدو والسير والطيران والوثـب والقفـز .. والجـرى.. ومـا يجـرى فـى هـذا الأفـق كلـه واد واحـد واسـتعارة الطـيران للعـدو

١- الإيضاح /١٦٥،١٦٦.

كاستعارته لغيره من هذه المعانى لا تخرج باللفظ عن جنسه لأن المسألة لا تخضع لدخول الجامع فى جزء الماهية أو خروجه عنها.... لأن الجامع فى ظننا لا ينحصر فيما يدل عليه الطرفان من حيث ماهيتهما فحسب وإنما يتسع لما يشير إليه المستعار منه الذى يفيض بكثير من المعانى والخطرات وينعكس منها على المشبه كل ما يقتضيه السياق وهى غالبا غير منضبطة"[1].

الضرب الثالث من أضرب الاستعارة:

جعل الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- هذا الضرب هو الصميم الخالص من أنواع الاستعارة وحدد مضمونه بأن الشبه فيه مأخوذ من الصور العقلية وذلك كاستعارة "النور" للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب فى قوله تعالى "واتبعوا النور الذى أنزل معه" (سورة الأعراف /١٥٧) وكاستعارة "الصراط المستقيم" للدين فى قوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم" (سورة الفاتحة /٥) وقوله عز وجل "وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم" (سورة الشورى /٥٢).

وفرق بين هذا الضرب وبين الضرب الأول بأن الاشتراك بين الطرفين هنا ليس فى عموم الجنس "فإنك لا تشك فى أنه ليس بين "النور" و"الحجة" ما بين "طيران الطائر" و"جرى الفرس" من

[1]- التصوير البيانى /٢١٤،٢١٥.

الاشتراك فى عموم الجنس لأن "النور" صفة من صفات الأجسام محسوسة و"الحجة" كلام.

وفرق بينه وبين الضرب الثانى بأن الاشتراك هنا ليس فى صفة محسوسة ولا فى طبيعة متحققة فى الطرفين "فإنك لا تشك فى أنه ليس بين "النور" و"الحجة" ... ما بين "الرجل" و"الأسد" من الاشتراك فى طبيعة معلومة تكون فى الحيوان كالشجاعة". "فليس الشبه الحاصل من "النور" فى البيان والحجة ونحوهما إلا أن القلب إذا وردت عليه الحجة صار فى حالة شبيهة بحال البصر إذ صادف النور ووجهت طلائعه نحوه وجال فى مصارفه وانتشر وانبت فى المسافة التى يسافر طرف الإنسان فيها وهذا كما تعلم شبه لست تحصل منه على جنس ولا على طبيعة وغريزة ولا على هيئة وصورة تدخل فى الخلقة وإنما هو صورة عقلية"[١].

ولعلك تتفق معى فى أن مسلك الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- فى بيان مضمون الأضرب الثلاثة السابقة وبيان الفروق بينهما راجع إلى مذهبه فى الفرق بين التشبيه الصريح والتمثيل.

لأن التمثيل عنده ما كان وجه الشبه فيه محصلا بضرب من التأول كما فى تشبيه الحجة بالشمس فى الظهور وقولهم فى صفة

١- أسرار البلاغة /٦٥.

الكلام: ألفاظه كالعسل فى الحلاوة وقول كعب الأشقرى: .... أو فاطمة الأنمارية عندما سئلت عن بنيها أيهم أفضل؟ "هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها" والتشبيه الصريح ما لا يحتاج وجه الشبه فيه إلى تأول بأن كان متحققا فى الطرفين على وجه الحقيقة الحسية كتشبيه الخد بالورد والشعر بالليل والوجه بالنهار أو كان التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد فى الشجاعة وبالذئب فى النكر[1].

ثم أعاد ما بدأ به من جعل هذا الضرب هو الصميم الخالص فى باب الاستعارة وتحدث عن شرفه وعلو شأنه فى البيان وذكر من ثمراته فائدتين:

أولاهما: أن فيه متسعا لإظهار البليغ براعته فى توليد المعانى النادرة والتصرف فيها والانطلاق من دائرة الحسيات المحدودة إلى دائرة العقل الطليق الذى لا حدود له (ومرجع هذه الثمرة كما هو واضح يعود إلى البليغ المنشىء).

وثانيتهما: أن إدراك هذه الصور العقلية والوصول إلى أغوار ما

---

[1]- راجع: أسرار البلاغة /٩٠ وما بعدها، وانظر: بحثا مخطوطا لكاتب هذه السطور بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة بعنوان: التشبيه والتمثيل عند الإمام عبد القاهر الجرجانى دراسة ومقارنة بجهود السابقين.

تهدف إليه خاص بذوى الأذهان الصافية والعقول النافذة والطباع السليمة والنفوس المستعدة لأن تعى الحكمة وتعرف فصل الخطاب (وهذا يرجع إلى الأديب سامعا ومتفهما).

ثم قرر الإمام عبد القاهر -رحمه الله- أن أنواع هذا الضرب كثيرة لا تنحصر تحت قانون لكن يمكن الاعتماد على ثلاث أصول ترجع إليها كافة الاستعارات الداخلة فى هذا الضرب على وجه الإجمال وإن كانت لا تفى ببيان التفاصيل والخصائص التى تتميز بها استعارة عن إستعارة وإن كانتا معا داخلتين تحت أصل واحد ورتب هذه الأصول ترتيبا راعى فيه البدء بما هو ظاهر لا يحتاج إلى سعة فى القول كثير التداول بين البلغاء وهو:

١- استعارة المحسوس للمعقول.

٢- ثم بما هو أقل منه ظهورا أو أقل تداولا وهو استعارة المحسوس للمحسوس بوجه شبه عقلى.

٣- ثم بما ترجع عقليته إلى الطرفين معا وهو أدقها وأصعبها مأخذا[١].

ثم أخذ بعد ذلك يعرض كل نوع من هذه الأنواع ويذكر

---

[١]- راجع: أسرار البلاغة /٦٦.

العديد من أمثلته وبيان وجه الشبه فيهـا ووجـه دخـول كـل مثـال فـى النوع الذى أورده فيه على النحو التالى:

النـوع الأول: مـن الاسـتعارة المبنيـة علـى الصـور العقليـة (استعارة محسوس لمعقول) ذكر الإمام عبد القاهر لهذا النوع العديد من الشواهد منها: استعارة "النـور" للبيـان والحجـة فـى قولـه تعـالى: "واتبعوا النور الذى أنزل معه" (سورة الأعراف /١٥٧).

فقد شبه البيان والحجة بالنور بجامع الانكشاف المترتب علـى كل منهما ... ثم استعير النور للبيان والحجـة علـى سـبيل الاسـتعارة التصريحية الأصلية والقرينة هى "الذى أنزل معه".

فالجامع بين الطرفين أخذ من محسـوس لمعقـول ألا تـرى أن "النور" مشاهد محسوس بالبصر والبيان والحجة مما يؤديه إليك العقل من غير واسطة من العين أو غيرها من الحواس فـالذى ينـور القلـب هو مدلول الألفاظ لا الألفاظ نفسها.

ومنه استعارة "الظلمة" للشبهة وللجهـل وللكفر لأنـه لا شـبهة فى أن الشبه والشكوك من المعقول ووجه التشبيه: أن القلـب يحصـل بالشبهة والجهل فى صفة البصر إذا قيده دجى الليل فلم يجد منصرفـا وإن استعيرت للضلالة والكفر فلأن صاحبها كمن يسعى فـى الظلمـة فيذهب فى غير الطريق وربما دفع -كما يقـول الإمـام عبد القـاهر-

إلى هلك وتردى فى أهوية"[١].

ومن هذا النوع أيضا استعارة "العلو" لزيادة الرجل على غيره فى الفضل والقدر والسلطان فى قول أبى تمام:

ويصعد حتى يظن الجهول   بأن له حاجة فى السماء[٢]

حيث شبه علو قدر الممدوح وارتقائه بالصعود بجامع الارتفاع فى كل منهما ثم استعار الصعود لعلو القدر ثم اشتق من الصعود "يصعد" بمعنى "يرتقى" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية فالمستعار له معقول والمستعار منه محس والجامع عقلى والشأن فى العقليات اللطف ومن هنا تحتاج إلى تمهل وتأمل ولذا كانت الاستعارة خاصية بعيدة.

ومن ذلك استعارة "القسطاس" للعدل ونحوه من المعانى المعقولة التى تعطى غيرها صفة الاستقامة والسداد.

ثم استشهد الإمام عبد القاهر فى ذلك بنص للجاحظ "م.ت ٢٥٥هـ" -رحمه الله- استعار فيه الكلمات التالية: "العيار والزمام والقسطاس والراووق"[٣] لعلم الكلام.

١- الأهوية: كل فرجة بين شيئين كما بين أسفل البيت إلى أعلاه وأسفل البئر إلى أعلاها.

٢- راجع: أسرار البلاغة /٣٠٢ والبلاغة التطبيقية /١٥٥.

٣- الراووق: الذى يروق به الشراب ويصفى.

كما استشهد بقول مشهور جعل فيه قائله النحو ميزانا للكلام ومعيارا وختم هذا العرض بقوله: "فهو أخذ شبه من شيء هو جسم يحس ويشاهد لمعنى يعلم ويعقل ولا يدخل في الحاسة وذلك أظهر وأبين من أن يحتاج فيه إلى تفصيل وبيان"[١].

النوع الثاني: من الاستعارة المبنية على الصور العقلية (استعارة محسوس لمحسوس) ونلاحظ أن الإمام عبد القاهر -رحمه الله- عندما تناول هذا النوع نجده قد فعل فيه مثل ما فعل في النوع الأول مع زيادة بسط وتحليل واستنتاج وإزالة شبهة.

ومثل له بما يروى "إياكم وخضراء الدمن"[٢] وبادر إلى نفي أن يكون النظر إلى التشبيه من جانب الحس ليصل إلى ما هو بصدده من أن الشبه المقصود هنا ملحوظ من جانب العقل فقال: "الشبه مأخوذ للمرأة من النبات .. وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد

١- أسرار البلاغة /٦٧.

٢- قلت بما يرى لأن الحديث هنا ضعيف جدا فلا يجوز التصريح بنسبته للرسول ﷺ إلا مع صيغة التمريض وقد خرجه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة تحت رقم (١٤) في جـ٢٤/١ والدمن: جمع "دمنة" وهو بعر الماشية وما اختلط به من الطين. فقد شبه المرأة بما ينبت في الدمن من الكلأ يرى له غضارة وهو وبيء المرعى منتن الأصل.

بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك ... بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسناء في المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة وهو: حسن الظاهر في رأى العين مع فساد الباطن وطيب الفرع مع خبث الأصل"[١].

كما مثل بقول الشاعر:

هو عسل إذا ياسرته   فإذا عاسرته فهو صاب[٢]

فالتشبيه هنا عقلي إذ ليس الغرض الحلاوة والمرارة اللتين تصفهما لك المذاقة ويحسهما الفم واللسان وإنما المعنى: ما تجده النفس من سرور وبهجة عند رضا الممدوح ومن كراهة وشدة عند سخطه وغضبه.

ومثل أيضا باستعارة الشمس للرجل النابه الرفيع القدر الواسع الشهرة. وظهور الشبه فيه بين إلا أن الإمام عبد القاهر -رحمه الله- وجد الفرصة سانحة ليزيدنا معرفة وينبهنا إلى أصل آخر ربما يغفل عنه نظر الدارس المبتدىء وهو:

١- أسرار البلاغة /٦٨، وراجع ص٢٧٤.

٢- ياسرته وعاسرته: من اليسر والعسر و"الصاب" عصارة شجر شديد المرارة.

أن اللفظة الواحدة يتأتى أن تستعار على طريقين مختلفين:

أحدهما: ما يبنى الشبه فيه على وصف حسى.

والثاني: ما يكون بناؤها فيه على وصف معقول.

وتأمل قوله تعالى: "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون" (سورة يس /٣٧)[١] تجد أنه قد شبه إزالة ضوء النهار عن موضع الظلمة بسلخ الجلد عن الشاة ونحوها وهما حسيان بجامع: ترتب أمر على آخر فى كل وهو أمر عقلى ولذا كانت الاستعارة بعيدة ثم استعير لفظ المشبه به للمشبه ثم اشتق منه "تسلخ" بمعنى "تزيل" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التى رسمت منظرا بديعا للضوء وهو ينحسر عن الكون قليلا قليلا وللظلام وهو يدب إليه ببطء.

إن الاستعارة هنا قد خلعت على الضوء والظلام الحياة حتى لقد صارا كأنهما جيشان يقتتلان قد انهزم أحدهما فولى هاربا وترك مكانه للآخر[٢].

ثم مضى الإمام عبد القاهر -رحمه الله- على سننه فى سرد الأمثلة وتكثيرها فذكر استعارة "نجوم الهدى" لصحابة

١- دلائل الاعجاز /٥٢١.

٢- الإعجاز فى نظم القرآن /١٠١.

رسول الله -ﷺ- وبين مأخذه من العقل وأنها ليست كاستعارة النجوم للمصابيح أو النيران فى الأماكن المتفرقة فقال:

"الاستعارة هنا توجب شبها عقليا لأن المعنى أن الخلق بعد رسول الله -ﷺ- اهتدوا بهم فى الدين كما يهتدى السارون بالنجوم وهذا الشبه باق لهم إلى يوم القيامة ... فالقياس على النجوم فى هذا ليس على حد تشبيه المصابيح بالنجوم أو النيران فى الأماكن المتفرقة لأن الشبه هناك من حيث الحس والمشاهدة لأن القصد إلى نفس الضوء واللمعان والشبه ههنا من حيث العقل لأن القصد إلى مقتضى ضوء النجوم وحكمه وعائدته ثم ما فيها من الدلالة على المنهاج والأمن من الزيغ عنه والاعوجاج والوصول بهذه الجملة منها إلى دار القرار ومحل الكرامة"[١].

كما مثل باستعارة "ملح الأنام" لصحابة رسول الله -ﷺ- لأن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوسا.

وينطوى هذا التشبيه على وجوب موالاة الصحابة -رضى الله عنهم- وأن تمزج محبتهم بالقلوب والأرواح كما يمزج الملح

١- أسرار البلاغة/٦٩،٧٠.

بالطعام فباتحاده به ومداخلته لأجزائه يطيب طعمه وتذهب عنه وخامته ويصير نافعا مغذيا كذلك بمحبة الصحابة -رضى الله عنهم- تصلح الاعتقادات وتنتفى عنها الأوصاف المذمومة وتطيب وتغذو القلوب وتنمى حياتها وتحفظ صحتها وسلامتها وتقيها الزيغ والضلال والشك والشبه والحيرة ... وعلى ذلك جاء فى صفتهم أن: "حبهم ايمان وبغضهم نفاق"[١].

ثم قال الإمام عبد القاهر -رحمه الله- "وعلى هذه الطريقة جرى تمثيل "النحو" فى قولهم: النحو فى الكلام كالملح فى الطعام" وبين أن الشبه هنا مأخوذ من الجانب العقلى لأن المعنى:

أن الكلام لا يستقيم ولا تحصل منافعه التى هى الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص كما لا يجدى الطعام ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه وهى التغذية ما لم يصلح بالملح. فأما ما يتخيلونه من أن معنى ذلك: أن القليل من

١- راجع: (فتح البارى /١/٨٠ - كتاب الإيمان - باب علامة الإيمان حب الأنصار وجـ٧/١٤١ - كتاب مناقب الأنصار -باب حب الأنصار من الإيمان تجد حديثا شريفا رواه سيدنا أنس بن مالك -رضى الله عنه- عن النبى -ﷺ- وهو: "آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار" وقال ابن حجر فى شرحه: "وهذا جار باطراد فى أعيان الصحابة لتحقق مشترك الإكرام لما لهم من حسن الغناء فى الدين" (٨١/١).

النحو يغنى وأن الكثير منه يفسد الكلام كما يفسد الملح الطعام إذا كثر فيه فتحريف وقول بما لا يتحصل على البحث وذلك أنه لا يتصور الزيادة والنقصان فى جريان أحكام النحو فى الكلام"[١].

وبناء على هذا التحليل يكون الوجه الصحيح الموجود فى كل من الطرفين على السواء هو: "أن استعمال كل منهما فيما يصاحبه مصلح له وترك استعماله مفسد له" دون نظر إلى جانب القلة والكثرة لأنه لا اعتبار لكلام فى اللغة الفصيحة يتجرد من قوانين النحو كما أنه لا مساغ لطعام عند جمهرة الآكلين إذا خلا من ملح الطعام.

وقد أوسع المتأخرون من البلاغيين القول فى ذلك[٢] بما لا يخرج عن هذا التحليل الدقيق للإمام عبد القاهر الجرجانى[٣].

النوع الثالث: من الاستعارة المبنية على الصور العقلية: وهو: أخذ الشبه من المعقول للمعقول.

جعل الإمام عبد القاهر -رحمه الله- هذا النوع قسمين:

أولهما: ما تبنى فيه الاستعارة على تنزيل الشىء منزلة عدمه.

وثانيهما: ما لا تبنى فيه الاستعارة على التنزيل ولكن على أن تربط

١- أسرار البلاغة /٧١،٧٢.

٢- راجع: شروح التلخيص ٣٢٨/٣ وما بعدها.

٣- راجع: أسرار البلاغة /٧١،٧٤.

بين المستعار والمستعار له بوصف جامع ويكون هذا الجامع صالحا لأن يوجد فى ضد المستعار.

ثم فصل القول فى هذين القسمين ففرع القسم الأول -وهو ما بنى على التنزيل- إلى فرعين: الأول منها: يدور حول صيغة الوجود والعدم وما يشتق منهما فيستعمل اسم الموجود فى المعدوم والمعدوم فى الموجود لاعتبارات خاصة تسوغ هذا الاستعمال فنقول فى استعارة اسم الموجود للمعدوم الذى بقيت آثاره: هو موجود بيننا وإن دفناه منذ سنين أو كيف تدفنون فى التراب موجود لم يمت؟ فالاستعارة مبنية على تشبيه عدمه بالوجود لبقاء مآثره وترك الاعتداد بصفة الموت الثابتة له فى الواقع.

ونقول فى استعارة اسم المعدوم للموجود الذى لا فائدة فى وجوده: "أرى معدوما فى صورة موجود" فالاستعارة هنا مبنية على تشبيه وجود الرجل الذى لا نفع فيه بالعدم وترك الاعتداد بصفة الوجود الثابتة له فى الواقع. ونقول -على طريقة الصوفية- "عدم ما سوى الله" على معنى إن ما لم يكن وجوده ذاتيا فهو عدم. كما نقول: عدمنا فلانا منذ انصرف إلى ملذاته.

وهذا النوع كما يقول الإمام عبد القاهر -رحمه الله- أعم

الأنواع[١].

والثانى منهما: ما تجاوز صفة الوجود والعدم العامتين إلى ما عداهما من الصفات الخاصة كالعلم والجهل والحياة والموت وما شابهما من الصفات المتضادة.

والاستعارة فى هذا النوع كالاستعارة فى سابقة مبنية على ترك الاعتداد بالصفة الموجودة لخلوها من ثمرتها المقصودة منها كخلو الحياة من ثمرتها وهى الادراك والعلم وبذلك ساغ أن يجعل من فقد العلم ميتا.

وذكر الإمام عبد القاهر -رحمه الله- أن التعبير عن فقد العلم والإدراك يتدرج فى المبالغة درجات:

أدناها: أن تقول: "هو لا يعقل وهو بهيمة وحمار" وما أشبه ذلك مما يحطه عن معانى المعرفة الشريفة فتسلبه العلم وإن لم تسلبه مطلق الاحساس الذى يشترك فيه الإنسان والبهائم.

وأوسطها: أن تقول: "هو لا يعلم ولا يفقه ولا يحس" فتسلبه بهذا التعبير ما لم تسلبه بالتعبير الأول وهو الحس والعلم.

وأعلاها: أن تقول: "هو ميت خارج من الحياة وهو جماد"

١- أسرار البلاغة /٧٤.

فتتم المبالغة فى إبعاده عن العلم والمعرفة لإلحاقة بما لا يعلم على الإطلاق إذ لا حياة بدون علم.

وعلى هذا القياس -وهو ربط الموت بالجهل -يبنى ربط الحياة بالعلم.

فالمستحق لاسم الحياة هو العالم ومن كان علمه متعلقا بأشرف العلوم وهو التوحيد كان أكثر استحقاقا لاسم الحياة من غيره.

"فإذا استعرت اسم "الحى" للعالم الذى ترك ثروة علمية كبيرة ينتفع بها فهو أولى باسم الحى ممن ترك ثروة علمية قليلة لقوة صلة الأول بالحياة وانتفاعه بها .. واستعارة اسم "الحى" للعالم الذى خلف ثروة قليلة من الانتاج العلمى أولى من استعارته لمن خلف مجدا عائليا أو ترك ما لا يورث عنه لأن شرف العلم أقوى من شرف الجاه والمال .. وهكذا"[1].

وعلى هذا النهج جاءت -ولله العلم- الآية الكريمة "أومن كان ميتا فأحييناه" (سورة الأنعام /١٢٢) فالمراد "بالميت" -والله أعلم بمراده- "الضال" فقد شبه به واستعير له كما أن المراد بـ "أحييناه" "هديناه" الآية إذن تذكر حالتين أو مرحلتين من مراحل حياة الإنسان المرحلة الأولى كان فيها ميتا وهو فى الثانية حى والواقع أن هذا

---

[1]- الإفصاح /١٦٥.

الإنسان كان حيا فى الحالين حياة بمعناها المتعارف ولكنه لما كان منطفىء الفطرة معطل الإدراك جعل ميتا ... وواضح أن الحياة هنا حياة وموت معا لأنه يحيا ويتقلب كما يتقلب كل حى ولكن هنا معنى قلبى ينقصه فسلب معنى الحياة من هذه الحياة وبهذا تكون الاستعارة قد أعطت لكل من الضلال والموت مفهوما جديدا.

فالضلال لم يعد ضلالا وإنما صار موتا وصار الموت ابطالا للطاقات الروحية وليس ابطالا للأحوال الجسمية.

وكذلك الاستعارة فى "أحييناه" ليست الحياة فيها هى الحياة المألوفة وإنما هى الهداية التى صارت بدورها حياة أو ضربا من الحياة غير مألوف لأنها تعنى خلوص النفس مما يثقل نهوضها السامى الذى تهتف به فطرتها الطاهرة النازعة نزوعا دائما إلى الحق والمثل الأعلى .. الاستعارة هنا جددت معانى الكلمات وأثرتها وأفرغت فيها فكرا جديدا وحسا جديدا صرنا نرى حياة ولكنها ليست حياة بالمعنى المتداول ونرى هداية ولكنها ليست هداية بالمعنى المتداول أيضا[1].

ولما كانت الاستعارتان فى الآية الكريمة منظورا فيهما إلى جانب العلم والادراك فقط ساق الإمام عبد القاهر -رحمه الله- مثالا

---

[1]- راجع: التصوير البيانى ٢١٠،٢١١.

آخر أضيفت فيه الحياة إلى القلب وهو قولهم: "فلان حى القلب"[١] لينبه إلى أن استعارة الحياة لا يجب دائما أن يراعى فيها جانب العلم والإدراك إذ قد ترد ويراد بها جانب القوة والحركة والنشاط فحياة القلب كما تستعمل للدلالة على أن صاحبه ثاقب النظر نافذ البصيرة فإنها تستعمل للدلالة على أنه نشيط متحرك لا يقعد عن الواجب.

والأول ملحوظ فيه جانب المعرفة والثانى ملحوظ فيه جانب القوة والقدرة وكلها صفات من لوازم الحياة فإذا عكست وقلت "ميت القلب" فلا يختلف الحال من جواز إرادة ضد أحد المعنيين الذين سبقا فى حياة القلب.

ووجه الاستعارة فى هذا المثال "فلان حى القلب" أن الحياة لا يوصف بها إلا من يعقل ويتحرك حركة إرادية والقلب ليس كذلك فنزل منزلة الحى لما لحركته القوية غير الإرادية من تأثير فى نشاط صاحبه الإنسانى أو الحركى كما قدمناه.

ثم خلص الإمام عبد القاهر -رحمه الله- إلى القول الجامع فى تنزيل الموجود منزلة المعدوم وهو يتلخص فى نفى الشىء بإثبات ضده كنفى الموجود غير النافع عند الحط من قدره باستعارة اسم المعدوم له -ونفى الحياة غير الصالحة باستعارة اسم الموت

١- أسرار البلاغة /٧٥.

لها- ونفى قيمة الشيء الموجود بسلب الشيئية عنه وقد يبالغون في سلب الشيئية عنه فيجعلونه أقل من لا شيء.

وعكس ذلك إذا أرادوا إثبات قيمة الشيء فإنهم ينفون الشيئية عن غيره والدرجة العليا في ذلك أن يقال: هذا هو الشيء وما عداه ليس بشيء .. فإذا توسطوا قالوا: "هذا شيء" يريدون أنه كامل في معناه ولا يتعرضون لنفي الشيئية عن غيره كما يقال في أسماء الأجناس: "هذا رجل" أي كامل في الرجولة[1].

والقانون العام في هذه الاستعارات التنزيلية:

أن كل صفتين تضادتا فإذا أريد تنقيص الفاضلة منهما عبر عن نقصها باسم ضدها مثلما عبر عن نقص الحياة في الكافر بالموت. ونقص السمع بترك الاستماع إلى الحق بالصمم.

ويستوى في ذلك أن تعبر عن نقص الصفة بوجود ضدها أو أن تصفها بمجرد العدم فكلا الوجهين مبني على التنزيل.

وإذا اجتمع في الكلام وصفان متضادان كما في قولهم:

"أصم عما ساءه سميع"[2] حيث وصفوا الممدوح بالصمم مع وصفهم له بسميع وهو اللفظ الموضوع للمبالغة في السمع

١- راجع: أسرار البلاغة /٧٦-٧٨.

٢- المصدر السابق /٧٩.

ومع وصفهم له بهاتين الصفتين المتضادتين لم يكن المنفى بإثبات ضده مطلق السمع أو مطلق الصمم بل صمم عن جنس خاص من المسموعات وسماع لجنس خاص من المسموعات.

فالممدوح يتصامم عما يسوؤه وإن سمعه فكان كأنه لم يسمع.

وبهذا يكون قد تبين أن أصل هذا الباب: تنزيل الموجود منزلة المعدوم لكونه بحيث لا يعتد به وخلوه من الفضيلة.

هذا: وقد استنبط المتأخرون مما قاله الإمام عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله- هنا -وبعد أن ابتسروا كلامه- أن الاستعارة تتقسم باعتبار الطرفين إلى وفاقية وعنادية وحددوا **مضمونا لكل** منهما فقالوا: "إن الوفاقية هي: التى يمكن اجتماع طرفيها فى شىء لعدم تنافيهما كاجتماع الحياة والهداية فى قلب الرجل المهتدى وكاستعارة الاحياء للهداية بجامع ما يترتب على كل من النفع والفائدة **فى قوله تعالى: "أو من كان ميتا فأحييناه" (سورة الأنعام /١٢٢) وأما استعارة "ميتا" للضال فمن الاستعارة العنادية الآتية لأن الميت لا يوصف بالضلال إلا باعتبار ما كان لاقتضائه الحياة[١].**

والعنادية هى: ما لا يمكن اجتماع طرفيها فى شىء واحد لكونهما متنافيين وهى **نوعان**: **الأول** ما بنى التشبيه فيه على ترك

---

[١]- بغية الإيضاح ١٢١/٣.

الاعتداد بوجود الصفة في المشبه لفقدان ثمرتها ويتمثل ذلك في صور مختلفة منها: استعارة اسم المعدوم للموجود الذى لا فائدة في وجوده ومنها استعارة اسم الموجود للمعدوم الذى بقيت آثاره ومنها استعارة اسم الميت للحى الجاهل لأن الجهل يفقد المرء ثمرة الحياة وهى الفكر والمعرفة ومنها استعارة اسم الميت للرجل العاجز الذى لا يقوى على أداء عمل نافع ومنها استعارة اسم الميت للحى النائم لأنه يفقد الإحساس بما حوله كما يفقده الميت.

الثاني ما يبنى التنزيل فيه على تنزيل التضاد الحاصل بين الطرفين منزلة التناسب لقصد التمليح أو السخرية كقوله تعالى لرسوله -ﷺ- "فبشرهم بعذاب أليم" (سورة آل عمران /٢١) إلى آخر هذه الصور والتقسيمات[١].

القسم الثاني من أقسام تشبيه المعقول بالمعقول.

ذكر الإمام عبد القاهر -رحمه الله- أن مدار الاستعارة في هذا القسم ليس على تنزيل الشيء منزلة عدمه كما سبق في القسم الأول وإنما مدار الاستعارة فيه على وجود صفة معقولة يشترك فيها الطرفان ولا يمتنع وجودها في ضد الطرف المستعار وساق تطبيقا على هذا التعريف ووضح أن هناك أمثلة لا مجال لحملها على غير

١- راجع: نهاية الإيجاز /١٨٣،١٨٤ وشروح التلخيص ٧٥/٤ وما بعدها وجامع العبارات فى تحقيق الاستعارات ٢٧٠/١ وما بعدها.

الاستعارة وهناك أمثلة أصل الكلام فيها الحقيقة ولكن العرف خصها في الاستعمال بالدلالة على نوع معين من مدلولات اللفظ العامة فإن نظرت من جانب هذا العرف ظهر جهة الاستعارة فيها وإن روعي أصل الوضع لم يبن من المعنى سوى الحقيقة، فمن النوع الأول قولهم: "لقي الموت"[١] بمعنى لقي الأمر الصعب الذي يشبه الموت في كراهة النفوس له ومنه قول الشاعر:

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال[٢]

بمعنى أن سؤال الرجال كريه إلى النفس ككراهة الموت.

ومن النوع الثاني قولهم في المغني البخيل: "إن غناه فقر"[٣] وكقول الشاعر:

ولو قنعت أتاني الرزق في دعة إن القنوع الغنى لا كثرة المال[٤]

يريد القناعة.

١- أسرار البلاغة /٧٩.

٢- المصدر السابق /٨٠ وانظر: دلائل الاعجاز /٢٥٦ تجد أن الإمام عبد القاهر -رحمه الله- قد ذكر هذا البيت وهو يعرض مقالة الجاحظ: المعاني مطروحة في الطريق.

٣- أسرار البلاغة /٨٢.

٤- المصدر السابق /٨٣.

وكقول الآخر:

إن القناعة فاعلمن غنى والحرص يورث أهله الفقرا

وقرر أنه يقبل على مضض الأخذ بالعرف فى هذا المقام (على ما سيجىء قريبا).

ثم شرح الأمثلة السابقة على النحو التالى:

بالنسبة للمثال الأول: وهو قولهم: "لقى الموت" أجرى الإمام عبد القاهر تطبيقه على القاعدة تطبيقا دقيقا فبين أولا وجود الصفة المشتركة فى الطرفين بأن كراهة النفس للنوائب والأحداث وكراهتها للموت كل منهما أمر ثابت محقق وأريد بالاستعارة: المبالغة فى صعوبة النوائب والنفرة منها فجعل الأولى كالثانية فى وقعها الكريه على النفس وبين ثانيا عدم امتناع وجودها فى ضد المستعار -وضد الموت هو الحياة- بما هو سائد فى طبيعة الأحياء من كراهتهم الموت لا يشذ عن ذلك إلا أفراد لهم نظرة خاصة إلى الحياة تسمو على نظر العامة.

وأراد بعد هذا التطبيق أن يحقق الفرق بين هذا القسم من الاستعارة العقلية المبنى على الاشتراك فى الصفة وبين سابقه المبنى على التنزيل فحاول إيجاد فرق بينهما من وجهين:

وجه يرجع إلى اختلاف طريق التشبيه فيهما والآخر يرجع

إلى الغرض من الاستعارة.

فذهب يقرر بالنسبة إلى الوجه الأول: أن التشبيه فيما نحن فيه روعيت فيه صفة معقولة يتصور الذهن وجودها فى الطرفين دون مراعاة شيء آخر سوى تلك الصفة وفى القسم التنزيلى لا يبنى التشبيه على صفة محققة بل على أمر فرضى تقديرى هو: جعل الصفة الموجودة فى شيء فى حكم العدم ليدخل بهذا الاعتبار فى حكم المعدومات فيستعار له أقوى الألفاظ دلالة على العدم والفناء أو جعل الصفة المعدومة فى حكم الموجودة فيستعار لصاحبها أقوى الألفاظ دلالة على الوجود.

وبالنسبة إلى الوجه الثانى وهو: الاختلاف فى الغرض فقد قرر أن الغرض من الاستعارة المبنية على الاشتراك فى الصفة هو: المبالغة فى إثبات وجود هذه الصفة فى المستعار له على الدرجة التى تكون عليها فى المستعار ثابتة فى الواقع أو تأكيد ثبوت الصفة التى قدرت بالاعتبار ثابتة وإن كانت معدومة فى الواقع وبيان ذلك: أنا إذا جعلنا الجاهل ميتا لم نجد الجهة الجامعة بين الطرفين متحققة فى الواقع لحصول الإدراك بوجه ما فى الجاهل الحى فاحتجنا إلى تنزيل القدر الذى فيه من الإدراك والعلم منزلة العدم ليستقيم لنا تشبيهه بالميت فى فقد الإدراك كلية واستعارة اسم الميت له لغرض

المبالغة فى نفى العلم الذى ينافى الجهل الواقع فى الاستعارة مستعارا له[١].

ويستخلص مما عرضه الإمام عبد القاهر -رحمه الله- ومما ذكرناه توضيحا لكلامه أن بين الطريقين اختلاف من وجوه:

الأول: أن التشابه بين طرفى الاستعارة مبنى فى غير التنزيلية على صفة محققة مدركة بالعقل فى كلا الطرفين وفى التنزيلية على صفة مفترضة لا وجود لها فى المستعار له إلا بتقدير تنزيله منزلة غيره.

الثانى: أن الاستعارة المبنية على الصفة الثابتة لا يمتنع فيها وجود الوصف الجامع بين المستعار والمستعار له فى ضد المستعار إذ لا تنافى بين الحياة المضادة للموت وكراهة الموت. والاستعارة المبنية على التنزيل يمتنع فيها وجود الوصف المفروض حصوله فى الطرفين تأويلا لا تحقيقا -يمتنع وجوده فى ضد المستعار له فإن فقد الإدراك والعلم يمتنع وجوده واقعا فى ضد المستعار له وهو العالم.

الثالث: أن الغرض من الاستعارة المبنية على الصفة هو المبالغة فى إثبات الصفة المشتركة للمستعار له لترى فى الصورة التى

---

[١]- راجع: أسرار البلاغة ٧٩، ٨٠.

هى عليها فى المستعار والغرض فـى التنزيليـة هـو: المبالغـة فـى سـلب الصفـة المضـادة لصفـة المستعار لـــه عــن نفــس المستعار له كسلب العلـم كليـة عـن الجـاهل الـذى جعـل ميتـا وذلـك لأن التـنزيل إنمـا يقـع بيـن الصفـات المتعـاندة كالعـــالم والجاهل فإذا اثبت المـوت لأحدهمـا تـأكيدا لجهلـه فقـد سـلبته العلم الذى لا يكون إلا مع الحياة.

وبالنسبة للمثال الثاني: ".. وإنما الموت سؤال الرجـال"[١] فـإن الإمام عبد القاهر -رحمه الله- جاء به ليؤكد أن وجه مـا قـرره فـى المثال السابق من أن الاستعارة فيه منظورا فيها إلى الوصف الجـامع لا إلى التنزيل لظهور أن وجه الشبه ههنا هو: أن سؤال الناس كريـه كراهة الموت وقرر أنـه ليـس تنزيليـا كاسـتعارة المـوت للجهـل لأن غرض الشاعر فيه: التنديـد بسـؤال النـاس وأنـه كريـه أشـد الكراهـة كالموت وليس غرضـه من جعل السؤال موتا أن ينفـى صفـة مضـادة للسؤال على قياس ما سبق من جعل الجاهل ميتا إذ ليس للسؤال ضـد يريد الشاعر نفيه باستعارة الموت للسؤال لأن الدلالـة الصريحـة فـى البيت لا تفيد ذلك.

اعتراض وجوابه:

قدر الإمام عبد القـاهر -رحمـه اللـه- أن يعـترض معـترض

١- انظر أسرار البلاغة ٨٠-٨٢.

على قوله: "ليس للسؤال ضد يريد الشاعر نفيه" فيقول: إن السؤال يكسب الذلة التى يصير بها السائل كالميت فلم لا يجوز أن يكون غرض الشاعر من الاستعارة هو: نفى العزة المقابلة للذل فيكون نظيرا لاستعارتهم الموت لخامل الذكر تأكيدا لنفى العزة عنه.

وكأن الإمام عبد القاهر -رحمه الله- أراد بتقدير هذا الاعتراض أن يمهد بنفسه الطريق للإبانة عن جوانب الخطأ التى يقع فيها الدارس عندما يتحد لفظ الاستعارة ويختلف نوعها والغرض المراد منها وطريق الوصول إليها فيحسبها كلها نوعا واحدا لوحدة اللفظ المستعار ولذلك أجاب بثلاثة أجوبة وكان يكفيه جواب واحد للرد على المعترض المفروض.

أولها: أن المعترض فاته النظر إلى القرائن القائمة الدالة على أن الشاعر لم يقصد نفى العزة باستعارة الموت لسؤال الرجال وإنما قصد أن كراهة النفوس للسؤال شبيهة بكراهتها للموت بدليل البيت الذى بعده:

كلاهما موت ولكن ذا　　　أشد من ذاك لذل السؤال

لما فى هذا البيت من الإشارة إلى أن كراهة النفوس للسؤال أشد وأقوى من كراهتها للموت -والشدة والقوة لا مدخل لها فى الإثبات والنفى الذى يقوم عليه التنزيل- وحين فات المعترض النظر إلى هذه القرينة وقع فى الخطأ.

وثانيهما: أن المعترض كأنه أراد باعتراضه إبطال ما قرره الإمام عبد القاهر من قسمة الاستعارة إلى ما يبنى على الصفة وما يبنى على التنزيل بتأويله ما جعله الإمام عبد القاهر من النوع الأول إلى ما يجعله من النوع الثانى وغفل عن أن هذا التأويل لا يتأتى تصوره فى استعارة المتنبى لفظ "الموت" لما صار إليه أمره حين شرب الخمر من جهالة وطيش وفقدان عقل حين قال:

وقدمت أمس بها موتة ولا يشتهى الموت من ذاقه

لأنه لا يريد شيئا سوى أنه كره ما وقع فيه كراهته للموت ولا يتأتى أيضا فى مثل قول القائل حين تنزل به الشدائد: "لقيت الموت بعينه".

وبهذا الجواب يكشف الإمام عبد القاهر عن وجه آخر من وجوه الإيقاع فى الخطأ وهو: أن اللفظ الواحد قد يقع مستعارا فى كلامين مختلفين ويقصد من استعارته فى أحدهما ما لا يقصد من استعارته فى الآخر لبناء أحدهما على الصفة والآخر على التنزيل والغفلة عن هذين الاعتبارين تحول دون إدراك نوع الاستعارة ودلالتها المعنوية.

وثالثهما: أن المعترض وهو يدلل على أن استعارة الموت لسؤال الرجال قصد بها نفى العزة لتكون من النوع التنزيلى قاسها على استعارة الموت لخمول الذكر ولم يقسها على ما مثل به

الإمام عبد القاهر لهذا النوع من استعارة الموت للجهل. كأنه يعتبر أن المثالين متساويين فى الدلالة على نفى الصفة المضادة للمستعار له وأن طريق التنزيل فيهما واحد لا يختلف وغفل عما بينهما من فرق دقيق يجعل كل واحدة منهما نوعا مستقلا بذاته وإن اشتركتا فى دخولهما تحت جنس التنزيلى.

ذلك لأنهما وإن اجتمعتا فى بناء الاستعارة فيهما على التنزيل وأن التنزيل فيهما دائر بين صفتين متنافيتين وأن الغرض فيهما هو: نفى الضد إلا أن دقة النظر تكشف عن أن الجهل ينافى الموت على الحقيقة لأنه إذا وجد العلم فقد وجدت الحياة وانتفى الموت وإذا انتفى العلم كلية انتفت الحياة حتما ووجد الموت حقيقة لأن التلازم بينهما واقعى.

أما التنافى بين خمول الذكر والذكر فليس كذلك إذ قد يوجد الذكر ولا حياة وقد ينتفى الذكر.

وتوجد الحياة فتنزيل الوجود منزلة العدم فى هذا مبنى على التخيل والوهم لا على الواقع وفى الأول مبنى على تباين حقيقى راجع إلى الواقع فاختلفا وإن ظن أنهما متحدان.

وبالنسبة للمثال الثالث: قولهم فى البخيل: "إن غناه فقر"[1]

---

[1]- راجع: أسرار البلاغة ٨٢،٨٣.

يؤخذ من كلام الإمــام عبـد القـاهر -رحمـه اللـه- أن لاسـتعمال هـذا التعبير مقامين: فإذا استعمل فى البخيل الذى لا يحسن الانتفاع بمالـه فهو من تنزيل الموجود منزلة المعدوم لأن صاحب المال إذا لم ينتفع به فى وجوهه التى أعدت لـه فهو فـى حكـم الفـاقد لـه (وسـاق ههنـا كلاما طويلا يدخل فى بـاب العظـة والاعتبـار فـلا نعـرض لـه) وإذا استعمل فى النهم الشره الحريص علـى الزيـادة منـه فهـو حقيقـة وإن كان ظاهره التشبيه والتمثيل لأنه لا يحصل له بالمال حقيقة الغنى فلا تزول عنه صفة الفقر ما دام متطلعا إليه طالبـا لـه لا تتقطـع شـهوته نحوه لأن الفقر لغـة الحاجـة والغنـى مـا بـه الاسـتغناء ولكـن لوجـود التلازم العرفى بين كثرة المال والاستفادة به فى قضاء الحوائج وبين قلة المال والعجز عن أداء المطـالب سـمى النـاس كـثرة المـال غنـى وقلته فقرا من باب تسمية السبب باسم المسبب.

وعلى الأصل اللغوى بنى الإمـام عبـد القـاهر -رحمـه اللـه- رأيه فى جعل هذا النوع من الحقيقـة ومـن عـده مـن الاسـتعارة فهـو ناظر إلى ما دل عليه العرف الذى ذكرناه.

وبالنسـبة للمثـال الرابـع: "إن القناعـة فـاعلمن غنـى..."[١] قـال الإمام عبد القاهر -رحمه اللـه-: إن هـذا المعنـى إخبـار عـن حقيقـة نفذت فى قضايا العقول وصححتهـا الخـبرة والعـبرة -ولكـن إطـراح

---

[١]- انظر: أسرار البلاغة /٨٣-٨٦.

العقل جعل الغنى كثرة المال فجرى عرف الناس بذلك فهو نظير المثال الذى قبله بالنسبة إلى الاستعمال الثانى من الوجهين اللذين ذكرا فيه- وميل الإمام عبد القاهر إلى جانب الحقيقة فيه إما أن يكون ناشئا عن نزعة تصوفية غلبت على فنه وإما احتذاء وتأثرا بابن جنى (م.ت ٣٩٢هـ) -رحمه الله- وهو أحد من يأخذ عنهم الإمام عبد القاهر فإن ابن جنى يقول: إن الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة وإلا فهى حقيقة[١].

خاتمة: تضمنت اعتراضا على تقسيم استعارة المعقول للمعقول إلى ما ذكره الإمام عبد القاهر -رحمه الله- حاصل هذه الخاتمة[٢]:

أن الإمام عبد القاهر جعل تنزيل الوجود منزلة العدم وعكسه .. والموجود منزلة المعدوم وعكسه وجعل ما ليس بشىء شيئا ... وما هو شىء ليس بشىء .. إلخ ما ذكر آنفا جعل كل ذلك من قبيل الاستعارة وهو ليس من الاستعارة فى شىء إذ مدار الاستعارة على التشبيه ولا تشبيه فى شىء مما ذكر وإنما هو مجرد إثبات لما هو ظاهر الانتفاء أو نفى لما هو ظاهر الثبوت وكذلك جعل الجهل موتا لقصد نفى الحياة والعلم عن الجاهل محصوله أنك لا تعتد بالحياة

١- راجع: الخصائص ٢/٤٤٤ وما بعدها.

٢- انظر: أسرار البلاغة ٨٧-٨٩.

التى فى الجاهل فتصيرها موتا وترك الاعتداد نفى لها وإنكار وليس بتشبيه.

وأجاب الإمام عبد القاهر -رحمه الله- عن هذا الاعتراض بتسليم انتفاء التشبيه فى هذه الصور وإبداء وجه مبن لبناء الاستعارة عليها وهو: ما كثر فى كلام الناس من قولهم: وجود كالعدم وشىء كلا شىء وعدم شبيه بالوجود.

وكثرة الاستعمال تجعل جانب التشبيه مرعيا فيه وإن لم يكن بصيغة متعارفة -وكأنه استضعف هذا الجواب فسلم انتفاء التشبيه مطلقا- إلا أنه أصر على مراعاة أن إعطاء المعقول اسم معقول آخر لا يتأتى إلا على الطريقتين المذكورتين وهما:

١- تنزيل الوجود منزلة العدم ويتبعه تنزيل الموجود منزلة المعدوم.

٢- الجمع بين الشيئين فى صفة مشتركة بينهما على ما سبق بيانه.

هذا: وهناك أمور أخرى -سوى عقلية الجامع بين الطرفين- تجعل الاستعارة بعيدة أو خاصية نادرة وقد أشار إليها الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- وهو يتحدث عن: تفاوت الكناية والاستعارة والتمثيل[١] ومن هذه الأمور:

١- أن يكون الجامع بين الطرفين غريبا لا يقوى عليه إلا أفراد

---

[١]- دلائل الاعجاز /٧٤.

الرجال الذين أوتوا ذهنا ارتفعوا به عن طبقة العامة كقول سوار ابن المضرب وهو يتحدث عن رقة النسيم:

بعرض تنوفة للريح فيها نسيم لا يروع الترب وان[١]

يصف النسيم بالونى وأنه لا يثير التراب وقد أحسن الإحسان كله فى تعبيره عن الإثارة بالروع والفزع والشاهد فى قوله: "يروع" فقد شبه إثارة التراب بالروع (الإفزاع والإخافة) بجامع: الحركة الهوجاء فى كل ثم استعار "الروع" للإثارة ثم اشتق من الروع: يروع بمعنى: يثير على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التى تصور الترب بما يروع ويفزع بالإثارة وتخيل النسيم رفيقا به حانيا عليه والقرينة هى إيقاع الروع على الترب فالاستعارة هنا بعيدة أو خاصية نادرة لا يدركها إلا أفراد الرجال لدقة الجامع بين الطرفين لأن الإفزاع والإخافة بعيدة الحضور فى الذهن عند حضور إثارة التراب.

ومن ذلك قول ابن المعتز فى وصف بازى الصيد:

١- دلائل الإعجاز /٧٦. التنوفة: الصحراء أو الأرض الواسعة البعيدة الأطراف وعرضها: بضم العين: جانبها. لا يروع: لا يخيف ولا يفزع. وان: من الونى: وهو الضعف والفتور والكلال والاعياء والوهن.

حتى إذا ما عرف الصيد الضار   وأذن الصبح لنا فى الإبصار[١]

يقول: كان الليل يمنعنا الرؤية فلما طلعت تباشير الصبح تمكنا من الإبصار ورأى البازى الصيد فجمع قواه للانقضاض عليه.

ولما كان تعذر الإبصار منعا من الليل جعل إمكانه عند ظهور الصبح إذنا من الصبح ومن هنا فقد شبه إمكان الرؤية بالإذن بجامع ما يترتب على كل منهما من مزاولة ما كان محظورا ثم استعار "الإذن" -وهو السماح بالفعل بعد المنع منه- للتمكن من الرؤية بعد العجز عنها.

وفى هذا الجامع خفاء ودقة لما فيه من تفصيل لا يدرك إلا بعد إدراك أن الليل كان مانعا من الرؤية يضاف إلى ذلك أنه معنى عقلى والعقليات المركبة دقيقة الإدراك بالنسبة إلى المحسوسات.

ومن ذلك النوع أيضا قول ابن المعتز:

يناجينى الإخلاف من تحت مطله   فتختصم الآمال واليأس فى صدرى[٢]

---

[١]- دلائل الإعجاز /٧٧. الضار: تخفيف الضارى وهو: المتمرن على الصيد فالضار: فاعل لعرف و"الصيد" مفعول به.

[٢]- المصدر السابق /٧٧. الإخلاف: عدم الوفاء و"المطل": التأخير فى إجابة المطلوب.

يقول: يدلني الاخلاف دلالة خفية يسترها المطل على أنه نصيبي من وعد الحبيب فيجتمع في نفسي الأمل بسبب الوعد واليأس بسبب المماطلة.

وقد استعار "المناجاة" -وهي الإسرار بالحديث- لدلالة الإخلاف الخفية على حرمانه من الوصل بجامع عقلي هو: خفاء الدلالة في كل والجامع العقلي خفي بالنسبة إلى الحسي الا أن لطف الاستعارة وزيادة حسنها جاء من جعل الإخلاف مستترا تحت المطل كأنه ينبيء عن نفسه من وراء ستار وفي قوله: "تختصم الآمال واليأس في صدري" استعارة الاختصام لحلول الأمل في صدره مرة واليأس مرة أخرى كأنهما يتنازعان مكانا واحدا بجامع مطلق التدافع بين شيئين متعارضين وفي الجامع خفاء ودقة.

هذا: وتخريج هاتين الاستعارتين على أساس الاستعارة المكنية بتشبيه الإخلاف بإنسان يتحدث من وراء ستار والأمل واليأس بمتخاصمين يتنازعان مكانا للإقامة فيه أحسن وأجمل وأكثر إبرازا للتخيل البديع الذي يتخيله الشاعر[١].

٢- أن تكون الاستعارة غريبة نادرة بسبب غرابة وندرة التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة وذلك كقول يزيد بن مسلمة يصف فرسا له بأنه مؤدب:

١- الإفصاح /١٧٢، وعلم البيان /٢١٣.

عودته فيما أزور حبائبي   إهماله وكذاك كـــل مخاطـــــر

وإذا احتبى قربوسه بعنانه   علك الشكيم إلى انصراف الزائر[1]

يقول: إن فرسه مؤدب إذا ركبه لزيادة صديق وقف أمام الدارسا كنا يمضغ الشكيم حتى تنتهي الزيارة.

فقد شبه جمع القربوس مضموما إلى جانبي فم الفرس بالعنان

---

[1]- دلائل الاعجاز /٧٥. المخاطر: المجازف. احتبى: جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها إذ لم يكن للعرب في البادية جدران يستندون إليها في مجالسهم، القربوس: مقدم السرج. العنان: سير اللجام الذى تمسك به الدابة. علك: مضغ. الشكيم والشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس من اللجام. وقد عني بالزائر نفسه على الالتفات للدلالة على كمال أدب فرسه وأنه لا يبرح مكانه وإن طال مكثه عند من يزوره كما هو شأن الزائر إذا كان يزور حبائبه. ويجوز رفع "قربوسه" على أنه فاعل "احتبى" بتنزيله منزلة الرجل المحتبي فكأن القربوس ضم فم الفرس ورأسه إليه بالعنان كما يضم المحتبي ركبتيه إليه بنحو ثوب. ويحتمل أن يكون "قربوسه" مفعول "احتبى" مضمنا معنى "جمع" ويكون الفاعل ضميرا عائدا على الفرس أي جمع قربوسه إليه بعنانه كما يضم المحتبي ركبتيه إليه بثوب ونحوه والتشبيه على الاحتمال الثاني أتم وأدخل في تحقيق التشابه لأن القربوس في الهيئة أعلى من فم الفرس وهذه الحالة هي التي تنطبق على حالة الاحتباء إذ أن ركبتي المحتبي تكونان في الهيئة أعلى من ظهره (المنهاج الواضح ٢٤٢/٣ والبلاغة التطبيقية /١٦١-١٦٣).

ممتدا من القربوس إلى جانبى الفم شبه ذلك بالاحتباء وهو: جمع ركبتى المحتبى منضمتين إلى بطنه بنحو ثوب ممتد من الركبتين إلى الظهر ثم استعير لفظ "الاحتباء" لجمع القربوس منضما إلى جانبى فم الفرس بالعنان واشتق منه "احتبى" بمعنى "جمع".

فهذه الاستعارة غريبة لكونها على نمط غير مألوف فى تشبيهات الاستعارة لا يقع فى كلامهم إلا نادرا ذلك لأن الانتقال إلى معنى "الاحتباء" المذكور عند استحضار إلقاء العنان على القربوس فى غاية الندور لما بين المعنيين فى البعد -إذ أن أحدهما من وادى الركوب والآخر من وادى القعود- مع ما فى الوجه من دقة التركيب وكثرة الاعتبارات الموجبة لصعوبة إدراكه وبعده عن الأذهان.

غير أنه قيل: إن التشبيه فى هذه الاستعارة بين مفردين: الاحتباء وجمع القربوس إلى فم الفرس وإن تضمنا تشبيه هيئة إلقاء العنان على القربوس بهيئة الاحتباء إذ أن التضمين لا يخرجهما عن افرادهما – هكذا قيل[١].

ونرى أنه لا ضرورة إلى اعتبار التشبيه بين مفردين مع وضوح كون الطرفين هيئتين مركبتين.

٣- أن يتصرف المتكلم فى الاستعارة القريبة تصرفا يخرج بها من

---

[١]- راجع: مواهب الفتاح وحاشية الدسوقى (بشروح التلخيص ٨٦/٤-٨٨).

القرب إلى البعد والغرابة كما فى قول كثير عزة:

ولما قضينا من منى كل حاجــــة ومسح بالأركان من هو ماســـح

وشدت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـــــا وســـالت بأعناق المطى رحالنا[١]

ولهذه الأبيات شهرة واسعة فى مجال الدراسات البلاغية والنقدية فقد استشهد بها ابن قتيبة[٢] -وهو يتحدث عن أضرب الشعر- للضرب الذى حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا وتابعه فى ذلك قدامة بن جعفر[٣] وأبو هلال العسكرى[٤].

والحق أن ابن قتيبة لم يحسن تعليل هذه الأبيات فمسخها مسخا شنيعا وذهب بأصل جمالها الذى تراءى منه شىء فى الألفاظ وغفل عن باقيه.

وقد أشاد ابن جنى[٥] بتلك الأبيات ثم جاء الإمام عبد القاهر[٦]

١- دلائل الاعجاز /٧٤،٧٥،٢٩٤،٢٩٦.

٢- الشعر والشعراء ١٣/١.

٣- نقد الشعر /٧٧.

٤- الصناعتين /٧٣.

٥- الخصائص ٢١٨/١ وما بعدها.

٦- أسرار البلاغة /٢١-٢٤، ودلائل الاعجاز /٧٤،٧٥،٢٩٤،٢٩٦.

وأدرك الحقيقة التى غفل عنها ابن قتيبة ومن تابعه[١].

وكأن الشاعر يريد أن يقول: ولما أتممنا مناسك الحج وشددنا الرحال إلى الأوطان فرحين مسرورين لا ينظر الغادى منا الرائح لتلهفنا إلى أوطاننا أخذنا بأطراف الأحاديث وفنونها المختلفة شأن الصحاب فى السفر وحدت بينهم الفرحة وجمعهم الطريق بينما المطى تسير بنا فى الأباطح سيرا حثيثا لينا سلسا كما يسيل الماء.

والشاهد فى قوله: "وسالت بأعناق المطى الأباطح" فقد شبه سير المطى فى الأباطح بسيلان الماء فيها بجامع قطع المسافة بسرعة فى لين وسلاسة ثم استعار سيلان الماء للسير اللين السلس ثم اشتق منه "سالت" بمعنى: سارت سيرا سريعا لينا سلسا.

وهذه الاستعارة قريبة عامية يدركها العامة والخاصة وذلك لكثرة استعمالها وظهور جامعها.

ولكن الشاعر تصرف فيها بحذقه ومهارته وأكسبها الدقة بصناعته حتى انتقلت من القرب إلى البعد وذلك بأن أسند الفعل المستعار وهو "سالت" إلى "الأباطح" دون "المطى" الذى حقه أن يسند إليه وإسناد "سالت" إلى "الأباطح" مجاز عقلى من إسناد ما للحال إلى المحل للإشعار بكثرة المطى وأنها ملأت الأباطح حتى ليخيل للرائى

---

[١]- البيان فى ضوء أساليب القرآن /٢٠٦.

أن الأباطح هى التى تسير .. وبإضافة هذا التجوز إلى الاستعارة القريبة ثم تعدية الفعل بالباء ثم إدخال الاعناق فى السير لأن السرعة والبطء فى سير الإبل يظهران غالبا فى الأعناق إذ أنه يقول: "وسالت الأباطح ملتبسة بأعناق المطى" وذلك يتضمن أن الاعناق سائلة.

وإذا فقد أضيف إلى الاستعارة المذكورة مجازان عقليان أحدهما: مصرح به وهو: إسناد الفعل إلى الأباطح والآخر: مقدر وهو إسناده إلى الأعناق لأن مقتضى كون الأباطح فى سيرها ملابسة لأعناق المطى أن تكون الأعناق أيضا سائرة.

وبإضافة هذين المجازين إلى الاستعارة القريبة صارت بعيدة خاصية نادرة[1].

ومثل هذه الاستعارة فى الحسن واللطف وعلو الطبقة فى هذه اللفظة بعينها قول الآخر:

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير[2]

أراد التعبير عن أنه مطاع فى الحى وأنهم يسرعون إلى

---

[1]- راجع: أسرار البلاغة /٢١-٢٤ والمنهاج الواضح ٣/٢٤٣-٢٤٥.

[2]- دلائل الإعجاز /٧٤،٧٥ شعاب: جمع شعب بكسر السين وهو الطريق فى الجبل ومسيل الماء فى بطن أرض أو ما انفرج بين الجبلين.

نصرته وأنه لا يدعوهم لحرب أو نازل خطب إلا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه حتى تجدهم كالسيول تجيء من ههنا وههنا وتنصب من هذا المسيل وذلك حتى يغص بها الوادى ويطفح منها.

والشاهد فى قوله: "سالت عليه شعاب الحى .." فقد شبه السير السريع السلس بسيلان الماء فى الشعاب بجامع قطع المسافة بسرعة ولين وسلاسة ... ثم استعار السيلان للسير المخصوص ثم اشتق منه: سالت "بمعنى سارت مسرعة فى لين وسلاسة وهذه الاستعارة قريبة لأنها فى متناول العامة والخاصة لظهور جامعها ولكنها اكتسبت الدقة بما أضفاه عليها الشاعر من الصنعة حيث أسند "سالت" إلى الشعاب دون "الأنصار" وقد كان حق الفعل أن يسند إلى الأنصار فأفاد بهذا الإسناد المجازى أن الشعاب قد امتلأت بالأنصار إذ لا يسند فعل الحال إلى المحل إلا حينما يراد أن الحال قد ملأ المحل وعم جميع بقاعه ثم لم يكتف بهذا بل أدخل "الوجوه" فى السير مع تعدية الفعل إليها بالباء وهذا مجاز عقلى مقدر وفى هذا تأكيد لأمر الطاعة وأنها صادرة عن محبة ورغبة فى نصرته حيث قال "بوجوه كالدنانير" فى الاشراق والبهجة الدالة على الفرح بنصرته، ثم أربى على هذين حيث عدى الفعل "سالت" إلى ضمير الممدوح بـ "على" فأكد مقصوده من كونه مطاعا فى الحى.

وبهذه التصرفات جميعا أخرج الشاعر هذه الاستعارة القريبة

إلى منزلة عليا من البعد والغرابة لأنها صحبت الغريب فصارت غريبة[١].

ويؤكد لك هذا: أنه لو قال: سالت الأنصار في شعاب الحى لبقيت على أصلها من القرب والابتذال ولكن الصنعة التى عرفت وجهها ألبستها ثوبا جديدا فاكتسبت حكما جديدا وهذا سحر من البيان. يقول الإمام عبد القاهر: وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف فأزل كلا منهما عن مكانه الذى وضعه الشاعر فيه فقل: "سالت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره" ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة؟ وكيف تعدم أريحتك التى كانت؟ وكيف تذهب النشوة التى كنت تجدها"[٢].

٤- أن يجمع فى الكلام بين عدة استعارات تدور كلها حول شىء واحد ويحصل بمجموعها تمام الشبه بين المستعار له والمستعار منه كقول امرىء القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل[٣]

---

[١]- البلاغية التطبيقية /١٦٥،١٦٦.

[٢]- دلائل الاعجاز /٩٩.

[٣]- تمطى: تمدد. الصلب: عظم فى الظهر ذو فقار يمتد من الكاهل إلى أسفل الظهر وهو المعروف بالعمود الفقرى أردف: أتبع. الأعجاز: جمع عجز وهو مؤخر الشىء أو الجسم، ناء: يقال ناء الرجل بالحمل نهض به مثقلا وناء به الحمل أثقله وبابه قال. الكلكل: الصدر.

أراد الشاعر وصف الليل بالطول فشبهه بحيوان كالفرس له صلب (ظهر) وإعجاز وكلكل (صدر) واستعار الصلب لوسط الليل وجعله يتمطى ليزداد طوله واستعار الكلكل (الصدر) لأوله وجعله ثقيلا يقعده عن الحركة واستعار الأعجاز للأجزاء الأخيرة منه وجعلها تترادف وتتوالى ليدل على أنه لا آخر له.

وقد اجتمعت هذه الاستعارات الثلاث لتحقيق غرض واحد هو طول الليل وبها مجتمعة تكاملت الصورة بين الليل والفرس وكل استعارة من هذه الاستعارات الثلاث إذا انفردت كانت عامية قريبة لشيوعها وقرب الجامع بين الطرفين فيها ولكن اجتماعها لغرض واحد ولاستكمال الصورة بين المستعار له والمستعار منه حولها إلى بعيدة خاصية نادرة.

والاستعارات الثلاث من قبيل المكنية لأنه شبه في الأولى الليل بحيوان وحذفه ورمز إليه بلازمه وهو الصلب وفعل مثل ذلك في الاستعارتين الأخيرتين.

ولعل هذا التحليل هو الذى قصده الإمام عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله- بقوله:

"ومما هو أصل في شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصدا إلى أن يلحق الشكل بالشكل وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد مثاله قول امرىء القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

لما جعل لليل صلبا قد تمطى به ثنى ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به فاستوفى له جملة أركان الشخص وراعى ما يراه الناظر من سواده إذا نظر قدامه وإذا نظر إلى خلفه وإذا رفع البصر ومده فى عرض الجو"[١].

وقد أفاد البلاغيون المتأخرون من دراسة الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- لتلك الأمور ولذا نراهم يتحدثون عنها عند حديثهم عن أقسام الاستعارة باعتبار الجامع إلى عامية وخاصية[٢].

رحم الله -عز وجل- الإمام عبد القاهر الجرجانى -ورحمنا جميعا معه- فأثره أكبر من أن يحمى وفضله أعظم من أن ينسى.

وبعد: فلعلى بعد هذه الجولة اليسيرة مع الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- أكون قد وفقت فيما عرضته من مسائل وقضايا بلاغية.

فإن كنت قد وفقت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإن كانت الأخرى فحسبى أننى اجتهدت وأفدت ولن يحرم المجتهد المخطىء من الأجر.

١- دلائل الاعجاز /٧٩.

٢- راجع: شروح التلخيص ٨٥/٤ وما بعدها.

"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا..."

"ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب"

"والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه والتابعين"

دكتور

محمد عبد المنعم على متولى

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً:

١- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق الأستاذ الشيخ/ محمود محمد شاكر ط ١٤١٢/١هـ - ١٩٩١م - مطبعة المدني - المؤسسة السعودية بمصر.

٢- الإعجاز في نظم القرآن أ.د/ محمود السيد شيخون ط١٣٩٨/١هـ-١٩٧٨م - دار التراث العربي - الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.

٣- الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان للأستاذ الشيخ/ أحمد محمد الحجار - ط/١٩٧٣م - دار الاتحاد العربي.

٤- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني - ط مكتبة محمد علي صبيح بالقاهرة ١٣٩٠هـ- ١٩٧١م.

٥- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للأستاذ الشيخ/ عبد المتعال الصعيدي - مكتبة الآداب - المطبعة النموذجية - بلا تاريخ.

٦- البلاغة التطبيقية - دعامة النقد الأدبى السليم - أ.د/ أحمد موسى - ط١/١٩٦٣.

٧- البيان فى ضوء أساليب القرآن أ.د/ عبد الفتاح لاشين - ط١/١٩٧٧م - دار المعارف المصرية.

٨- تربية الذوق البلاغى عند عبد القاهر الجرجانى المتوفى ٤٧١هـ أ.د/ عبد العزيز عبد المعطى عرفة - ط١/١٤٠٣هـ-١٩٨٣م - دار الطباعة المحمدية.

٩- التشبيه والتمثيل عند الإمام عبد القاهر الجرجانى - دراسة ومقارنة بجهود السابقين - رسالة التخصص (الماجستير) مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة -١٤٠٦هـ-١٩٨٦م - د/ محمد عبد المنعم على متولى.

١٠- التصوير البيانى - دراسة تحليلية لمسائل البيان - أ.د/ محمد أبو موسى - ط٢/١٤٠٠هـ-١٩٨٠م - دار التضامن - الناشر: مكتبة وهبة بالقاهرة.

١١- التصوير المجازى والكنائى تحرير وتحليل - أ.د/ صلاح الدين محمد أحمد - ط١/١٤٠٨هـ-١٩٨٨م - مكتبة سعيد رأفت بالقاهرة.

١٢- جامع العبارات فى تحقيق الاستعارت تأليف/ أحمد مصطفى الطرودى التونسى - تحقيق د/ محمد رمضان الجربى - ط١/١٣٩٥و.ر-١٩٨٦م - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع بليبيا.

١٣- حاشية الدسوقى على شرح السعد (ضمن شروح التلخيص) - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - بلا تاريخ.

١٤- الخصائص لابن جنى - تحقيق الأستاذ/ محمد على النجار - ط٣/١٤٠٧/١٤٠٨هـ،١٩٨٧-١٩٨٨م - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٥- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى - تحقيق الأستاذ الشيخ/ محمود محمد شاكر - مطبعة المدنى - المؤسسة السعودية بمصر ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م - الناشر: مكتبة الخانجى بالقاهرة.

١٦- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء فى الأمة تخريج/ محمد ناصر الدين الألبانى - ط٥/١٤٠٥هـ-١٩٨٥م - المكتب الإسلامى - بيروت.

١٧- سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر الجرجانى أ.د/ محمد جلال الذهبى - ط١/١٤٠٤هـ-١٩٨٤م - مطبعة الأمانة بالقاهرة.

١٨- شروح التلخيص - ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان - بلا تاريخ.

١٩- الشعر والشعراء لابن قتيبة - دار الثقافة للنشر والتوزيع بيروت لبنان - بلا تاريخ.

٢٠- الشوقيات شعر المرحوم/ أحمد شوقى - ط١٩٨٣م - المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

٢١- صحيح مسلم بشرح النووى - دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢٢- الصناعتين: الكتابة والشعر لأبى هلال العسكرى - تحقيق د/ مفيد قميحة - ط١/١٤٠١هـ-١٩٨١م - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

٢٣- الصور البيانية وقيمتها البلاغية - أ.د/ بسيونى عرفة رضوان - ط١٩٨١م - دار الرسالة للطباعة والنشر والتوزسع بالقاهرة.

٢٤- علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان أ.د/ بسيونى عبد الفتاح فيود - ط١/١٣٠٨هـ-١٩٨٧م - عالم الكتب - بيروت.

٢٥- فتح البارى بشرح صحيح البخارى لأحمد بن حجر العسقلانى - تحقيق/ محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقى وقصى محب الدين الخطيب - دار الريان للتراث بالقاهرة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢٦- قضية الإعجاز البلاغى وأثرها فى تدوين البلاغة العربية أ.د/ عبد العزيز عبد المعطى عرفة - ط١/١٤٠٥هـ-١٩٨٥م - عالم الكتب - بيروت.

٢٧- الكامل فى اللغة والأدب للمبرد - تحقيق الأساتذة/ نعيم زرزور وتغاريد بيضون - دار الكتب العلمية بيروت لبنان - ط١/١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢٨- لسان العرب لابن منظور - تحقيق الأساتذة/ عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى - ط دار المعارف المصرية - بلا تاريخ.

٢٩- المطول على التلخيص للعلامة سعد الدين التفتازانى - ط أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

٣٠- مفتاح العلوم للسكاكى - تحقيق/ نعيم زرزور - ط٢/١٤٠٧هـ-١٩٨٧م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٣١- المنهاج الواضح للبلاغة للأستاذ/ الشيخ/ حامد عونى - ط/١٩٧٢م - دار الاتحاد العربى - الناشر: مكتبة الجامعة الأزهرية بالقاهرة.

٣٢- مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى (ضمن شروح التلخيص) - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - بلا تاريخ.

٣٣- نظرية البيان بين عبد القاهر والمتأخرين أ.د/ حسن إسماعيل عبد الرازق - ط١/١٤٠١هـ-١٩٨١م - دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

٣٤- نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر تحقيق أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجى ط١/١٤٠٠هـ-١٩٨٠م - الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.

٣٥- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازى تحقيق د/ أحمد حجازى السقا - ط١/١٩٨٩م - المكتب الثقافى للنشر والتوزيع بمصر.

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع: ٩٧/٤١٧٦

الترقيم الدولى: 5 - 3091 - 19 - 977

مطبعة السلام بالزقازيق